رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إتحاف أهل السنة العدول

في بيان

السنة الأصول

تأليف فضيلة الشيخ

عبد الله بن صالح العبيلان

حفظه الله تعالى

عضو الإفتاء والمشرف العام على فرع
الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بحائل

تقديم

الشيخ صالح بن فوزان الفوزان

حفظه الله

عضو هيئة كبار العلماء

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إتحاف أهل السنة العدول

في بيان

الستة الأصول

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إتحاف أهل السنة العدول

في بيان

الستة الأصول

تأليف
فضيلة الشيخ
عبد الله بن صالح العبيلان
حفظه الله تعالى
عضو الإفتاء والمشرف العام على فرع
الرئاسة العامة للبحوث العلمية بحائل

تقديم
الشيخ صالح بن فوزان الفوزان
حفظه الله
عضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وبعد: فقد اطلعت على كتاب: إتحاف أهل السنة في بيان وشرح الأصول الستة التي ذكرها الشيخ الإمام المجدد: محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، والشرح للشيخ عبد الله بن صالح العبيلان المشرف على فرع الرئاسة العامة للإفتاء في منطقة حائل فوجدته شرحًا وافيًا مفيدًا في هذا الموضوع المهم. فجزاه الله خيرًا ونفع بعلمه. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

في ١٧/٨/١٤٣٨هـ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله

الحمد لله، وبعد: فقد اطلعت على كتاب: «اتحاف أهل السنة في بيان وشرح الأصول الستة» التي ذكرها الشيخ الإمام المجدد: محمد بن عبد الوهاب رحمه الله. والشرح للشيخ عبد الله بن صالح العبيلان المشرف على فرع الرئاسة العامة للإفتاء في منطقة حائل، فوجدته شرحًا وافيًا مفيدًا في هذا الموضوع المهم، فجزاه الله خيرًا ونفع بعلمه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

في ٨/ ١١/ ١٤٣٨هـ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأحسن الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار.

فإن رسالة الأصول الستة للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة مباركة اشتملت على مهمات الدين ومقاصده وقواعد صلاح أمر الدين والدنيا، وميز بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ منهاج أهل السنة والجماعة عن سبل غيرهم من الفرق والطوائف، فكانت متنا يرغب كل عالم بشرحه وبيانه، وخاصة في هذا الزمن الذي ظهر فيه الجهل في أصقاع المعمورة بسبب اتخاذ الناس رؤوسا جهالا، واختلط الحابل بالنابل بسبب كثرة وسائل الإعلام للطوائف والفرق والجماعات الضالة، فكان لا بد من النصيحة للمسلمين بيان منهاج

أهل السنة ولجماعة وما يضاده من المناهج والطرق الضالة باستمرار، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف]، وفي الحديث المرفوع قال ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»، ومن هنا جاء شرحي لهذه الأصول تذكيرا لأهل السنة والجماعة بما بجب أن يختصوا به عن غيرهم ويتمسكوا به كما قال ﷺ:

«**فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها وتمسكوا بها**».

والله أسال أن يجعله مباركا وأن ينفع به من قرأه أو بلغه

والحمد لله رب العالمين.

كتبه

عبد الله بن صالح العبيلان

١٥/ ١١/ ١٤٣٨هـ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إتحاف أهل السنة العدول في بيان الستة الأصول

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من أعجب العجاب وأكمل الآيات الدالة على قدرة الملك الغلّاب ستة أصول، بيّنها الله تعالى بيانًا واضحًا للعوام، فوق ما يظن الظانّون، ثم بعد هذا غلط فيها كثير من أذكياء العالم وعقلاء بني آدم إلّا أقل القليل». ا. هـ.

الشرح

الأصول: جمع أصل، والأصل هو أصل الشيء وقاعدته وأساسه، وما يبنى عليه غيره.

قوله: (ستة): هذا من باب تقريب العلم، وكان من هدي النبي ﷺ أنه يربط العلم بالأعداد ليسهل حفظها، كقوله ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ...**»(١).

وكقوله: «**عَشْرٌ مِنَ الفِطْرَةِ...**»(٢).

وهذه الطريقة قد وردت في القرآن في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ

---

(١) رواه البخاري: (١٦)، ومسلم: (٤٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم: (٢٦١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾﴾ [النور: ٥٨].

أما فائدة هذه الأصول: فهذه الأصول وغيرها قد بينها الله ورسوله بيانًا شافيًا كافيًا، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

وقال ﷺ: «**قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلَّا هالك...**»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يتقلب في السماء طائر إلَّا ذكرنا منه علمًا»(٢).

وقال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ضمن الله لمن اتّبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]»(٣).

وقوله: (بينها الله بيانًا واضحًا للعوام....).

اعلم رحمك أن الإيمان والهدى حصل بالوحي النازل، لا بمجرد العقل الذي كان حاصل قبل الوحي، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ

---

(١) رواه ابن ماجه: (٤٣)، وأحمد: (١٧١٨٢)، والطبراني في الكبير: (١٥٠٢٣)، والحاكم: (٣٣١).

(٢) رواه أحمد: (٢١٤٧٧)، وأبو يعلى في مسنده: (٥١٠٩).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٣٦)، وانظر: مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي: (ص: ٢٦٨).

إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ: ٥٠].

وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: حدثنا ﷺ: «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنَّةِ»(١).

المقصود بالأمانة: الإيمان.

ولهذا قال جندب بن عبد الله، وابن عمر وغيرهما: «كُنَّا غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا، وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الإِيمَانِ»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥].

قالَ: نُورُ الْقُرْآنِ عَلَى نُورِ الْإِيمَانِ.

وَقَالَ السدي فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]: نُورُ الْقُرْآنِ وَنُورُ الْإِيمَانِ، حِينَ اجْتَمَعَا، فَلَا يَكُونُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [هود: ١٧]، يعني: هُدَى الْإِيمَانِ.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧]، أَيْ: مِنَ اللهِ، يعني: الْقُرْآنَ شَاهِدٌ مِنَ اللهِ، يُوَافِقُ الْإِيمَانَ وَيَتْبَعُهُ.

وَقَالَ: ﴿وَيَتْلُوهُ ﴾؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْمَقْصُودُ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُرَادُ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْإِيمَانُ وَزِيَادَتُهُ.

---

(١) رواه البخاري: (٦٤٩٧)، ومسلم: (١٤٣) واللفظ له.

(٢) رواه ابن ماجه: (٦١)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٥٤٩٨)، وصححه الألباني.

وَلِهَذَا كَانَ الْإِيمَانُ بِدُونِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ؛ وَالْقُرْآنُ بِلَا إِيمَانٍ لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ؛ بَلْ صَاحِبُهُ مُنَافِقٌ؛ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا**»[(١)].

وهذا كله يدلك على أن الإيمان لا علاقة له بالذكاء، وقد يكون الرجل من أكمل الناس حصافة ورأيًا وهو كافر.

«فالناس أربعة أصناف: صاحب قول قرآني وحال إيماني، فهم أفضل الخلق، وصاحب قول قرآني وحال ليس بإيماني، وصاحب حال إيماني وليس له قول، ومن ليس له لا قول قرآني ولا حال إيماني»[(٢)]. ا. هـ.

قوله: (من أعجب العُجاب...)

هذا فيه رد على المشركين حينما قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، فكأنه يقول: العُجاب هو ما أنتم عليه.

قوله: (بيانًا واضحًا للعوام...)

مراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه المسائل بينة واضحة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

فليس شرطًا أن يكون من العلماء، أو الأحبار، بل الشرط أن يكون عنده عقل يفهم به الخطاب، ولهذا لو سألت العامي: بماذا تعرف ربك؟ لأجابك

---

(١) رواه البخاري: (٧٥٦٠)، ومسلم: (٧٩٧) واللفظ له» ا. هـ. انظر: مجموع الفتاوى (٢٤٢/ ١١).

(٢) انظر: كتاب النبوات: (١/ ١٣٦).

فقال: أعرفهُ بأنه خلقني، وخلقي يدلُّ على أن هناك خالق خلقني، وركبني، وهذه السماء والنجوم، وهذه الأرض والجبال والأشجار تدل على أن هناك خالق لهذا الكون، ولهذا يوم القيامة ماذا يقول الكفار عامةً؟: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

الأصل الأول:

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الذي هو الشرك بالله تعالى، وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوهٍ شتى، بكلام يفهمهُ أبلد العامة، ثم لما صار على أكثر الأمة ما صار أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين وأتباعهم» ا. هـ.

الشرح

قوله: (الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الذي هو الشرك بالله تعالى....)

الإخلاص: هو إفراد المعبود بالقصد، في كل ما أمر بالتقرب به إليه، قال تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزُّمر: ٢ - ٣]: أمر الله ﷻ نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، أن يعبده في حال كونه مخلصًا له الدين، أي مخلصًا له في عبادته من جميع أنواع الشرك صغيرها وكبيرها، كما هو واضح من لفظ الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

وقال ﷻ: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٢ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ ﴾ [الزُّمر: ١١ - ١٥].

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾ [آل عمران: ٣٤]، قال: «في النية والعمل والإخلاص

والتوحيد»[١].

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، قال: «لا تفضحنا»، ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] قال: «ميعاد من قال: لا إله إلَّا الله»، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران: ١٩٥]، قال: «أهل لا إله إلَّا الله أهل التوحيد والإخلاص لا أخزيهم يوم القيامة»[٢].

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]: «يعني: بِالزَّكَاةِ طَاعَةَ اللهِ وَالإِخْلاصَ»[٣].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] يقول: «سبيلًا، والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره التوحيد والاخلاص الذي جاءت به الرسل»[٤].

وقد جاءت الإشارة إلى التوحيد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] إنه لا إله إلَّا الله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] لا إله إلَّا الله ترفع العمل الصالح، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر: ٣] لا إله إلَّا الله.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] لا إله إلَّا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] عن قول لا إله إلَّا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝١ لَّوْ مَا

---

(١) انظر: الدر المنثور: (٢/ ١٨٠).

(٢) انظر: الدر المنثور: (٢/ ١١٤).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٣٥٢).

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٣٥٢)، والدر المنثور: (٣/ ٩٦).

تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الحجر: ٦ - ٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ٣٦ - ٣٧] هو لا إله إلَّا الله.

وقوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] هو لا إله إلَّا الله.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] عن قول لا إله إلَّا الله.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤] فيها اسمه التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾، يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٥١] يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾، يعني: فإن أبوا التوحيد فقولوا لهم: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، يعني: مخلصين بالتوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨] فمشيئته ﷻ لأهل التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢] ومن يأنف عن عبادة الله، يعني: التوحيد، ويستكبر، يعني: ويتكبر عن العبادة.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩] ﴿ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ ﴾ في التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧] يعني: شاهدًا بما أمرتهم من التوحيد، وشهيد عليهم بما قالوا من البهتان.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ ﴾، استثنى أهل التوحيد، أنهم لا يخلدون فيها.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦] ما أجابوا الرسل في التوحيد، ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ماذا أجيبوا في التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٧]، ﴿ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾، يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣]، ﴿ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ ﴾، يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ

فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ ﴾، يعني: الدعوة إلى التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود: ٥٢] ولا تعرضوا عن التوحيد مشركين.

وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود: ٥٩] كل جبار متعاليًا عن التوحيد.

وقوله تعالى ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢] كما أمرت على التوحيد، ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ ﴾ فيه، يقول: ولا تعصوا الله في التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩] ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ ﴾، استثنى أهل التوحيد، لا يختلفون في الدين.

وقوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠] إلَّا لله في التوحيد، أمر الله أن يوحد ويعبد وحده.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] يعني: إلى معرفة الله وهو التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد: ٢٠] الذين يوفون بعهد الله في التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن

يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ [الرعد: ٣٦] ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ ﴾، يعني: إلى معرفته وهو التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٠] قالت لهم رسلهم: أفي الله شك، يقول: أفي التوحيد لله شك.

وقوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾، وهو التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾، إلى التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٤٠] يعني: أهل التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢]، ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ لتوحيد الله عز وجل أنه واحد، وهم مستكبرون عن التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١] يعني: إياي فخافون، فلا تتركوا التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦] يعني: أعرضوا عن التوحيد ونفروا عنه كراهية التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢] ثم

ننجي الذين اتقوا الشرك منها، يعني: أهل التوحيد فنخرجهم منها.

وقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٨٧] يعني: إلَّا من وحد الله واتخذ عند الرحمن ﷻ، وهي شهادة ألا إله إلَّا الله وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩] يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣] يتقون، يعني: يخلصوا التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٤] لا يعلمون الحق، يعني: التوحيد، فهم معرضون عنه، عن التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ٢٤] إلى الطيب من القول، يعني: التوحيد، وهو قول: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١] وأمروا بالمعروفِ، يعني: التوحيد الذي يعرف، ونهوا عن المنكر الذي لا يعرف، وهو الشرك.

وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص: ٧٥] الحق لله، يعني: التوحيد لله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧] إلى معرفة ربك ﷻ، وهو التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١] أصابهم بتركهم التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢] اصطفاهم بالتوحيد.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦١] وحِّدوني، هذا التوحيد صراطٌ مستقيمٌ.

وقوله تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٨١] الذين بلغوا عن الله التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٥٩] على نعمة التوحيد، وسلام على أهله.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣] الدين الخالص، يعني: التوحيد، وغيره من الأديان ليس بخالص.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١] يعني: له التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٣٢] يعني: بالحق، وهو التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥] يعني: انقبضت، ويقال: نفرت عن التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ

﴿فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] عن التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] لئن أشركت بعد التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠] تدعون إلى التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥] يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] متكبر عن التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١)﴾ [غافر: ٤١] النجاة من النار، يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦] أن أسلم، يعني: أخلص التوحيد لرب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فإن أعرضوا عن الإيمان، يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] ومن أحسن قولًا ممن دعا إلى الله، يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣)﴾ [الشورى: ١٣] أقيموا الدين: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى: ٤٧] استجيبوا لربكم بالإيمان، يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٨] باقية ببقاء التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٩] وكانوا مخلصين بالتوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٨] بالحق في الدنيا، يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الدخان: ٣١] عاليًا عن التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٥] إلى التوحيد، عند السؤال في القبر.

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦] كلمة التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] من أحسنت إليه بالتوحيد في الدنيا، إلَّا أن أحسن إليه بالجنة في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النجم: ٣١] ويجزي الذين أحسنوا التوحيد في الدنيا بالجنة.

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف: ١٠] التجارة: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: ١٠] والآيات

بعدها، إنكم إذا وحَّدتم تصيبون الدنيا والآخرة جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] ومن يعص الله ورسوله في التوحيد فلا يؤمن فإن له نار جهنم.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٣] يعني: ما عهد الله إليه أمر الميثاق الأول، يعني: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] مخلصين له الدين، يعني به: التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القارعة: ٦] بالتوحيد ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القارعة: ٨] بالشرك.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتحقيق إخلاص الدين كله، بحيث لا يكون العبد ملتفتًا إلى غير الله، ولا ناظرًا إلى ما سواه، لا حبًّا له، ولا خوفًا منه، ولا رجاءً له؛ بل يكون القلب فارغًا من المخلوقات، خاليًا منها لا ينظر إليها إلَّا بنور الله، فبالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي، فيحب منها ما يحبه الله، ويبغض منها ما يبغضه الله، ويوالي منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه الله، ويخاف الله فيها، ولا يخافها في الله، ويرجو الله فيها، ولا يرجوها في الله» ا. هـ[1].

ويتبين عِظَمُ التوحيد من وجوه[2]:

الوجه الأول: التوحيد هو غاية الخلق، فإن الله تَعَالَى إنما خلق الجن والإنس

---

(١) انظر: العبودية: (ص: ٣٣).

(٢) ولي كتاب بعنوان: «أكرام الموحدين في بيان تحقيق وصية رب العالمين»، ورسالة: «القول الرشيد في بيان تحقيق التوحيد»، جمعت فيهما مسائل مهمة، وهما مطبوعان بفضل الله تعالى، انظرهما غير مأمور.

ليوحِّدوه، ولذا قال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فقوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، أي يوحِّدون، فإن المرء لا تنفعه صلاة ولا صيام ولا حج ولا إحسان ولا برٌّ ما لم يكن موحدًا.

والتوحيد هو: إفراد الله بالعبادة؛ إفراده بالتعلق، ولذلك غاية التوحيد من حيث المعنى أنه إفراد الله بالتعلق بالعبادة.

وأما **الشرك**: فغايته التعلق بغير الله تعالى.

والتوحيد يقوم على ركنين أساسيين، قلَّ من يجمع بينهما من الخلق. وهذان الركنان دلت عليها كلمة التوحيد **لا إله إلَّا الله**، ودل عليهما قوله ﷻ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. هو معنى لا إله إلَّا الله، فإنها جمعت بين أمرين:

الأول: نفي العبادة عما سوى الله ﷻ.

الثاني: إثبات العبادة لله تعالى.

ولذا كان معنى لا اله إلَّا الله: **لا معبود بحق إلَّا الله** ﷻ.

الوجه الثاني: أن توحيد العبادة هو الغاية من إنزال الكتب السماوية، ولذا قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ ﴾ [هود: ١ - ٢].

الوجه الثالث: أن توحيد الألوهية هو الغاية من إرسال الرسل، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل: ٣٦].

الوجه الرابع: أن توحيد الألوهية هو الغاية من تطهير بيت الله، كما قال تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

الوجه الخامس: أن توحيد العبادة غاية الجهاد وقتال الكفار، فقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلَّا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلَّا بحقه وحسابه على الله»(١).

الوجه السادس: أن توحيد الألوهية هو دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، فكانوا يدعون أقوامهم إلى عبادة الله تعالى وحده ويقولون لأقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

الوجه السابع: أن توحيد العبادة أول دعوة الرسل، كما يظهر ذلك من آيات القران الكريم، وكما قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «...فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل»(٢).

الوجه الثامن: أن توحيد العبادة كما أنه أول دعوة الرسل وكذلك هو آخر دعوة الرسل أيضًا، فهو أول الأمر وآخر الأمر، فقد وصى بها يعقوب عليه السلام بنيه، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقالت عائشة رضي الله عنها كما في الصحيحين: لما نزل برسول الله ﷺ: «طفق يطرح خميصة له على وجهة فإذا اغتم كشفها عن وجهه، وهو كذلك يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٣).

فهذه كانت آخر وصايا النبي ﷺ لقدوة الناس بعده أصحابه رضي الله عنهم.

الوجه التاسع: أن توحيد الألوهية أول واجب وآخر واجب وأول ما يدخل به المرء في الإسلام، أما بالنسبة للأولية فقد تقدم، وأما بالنسبة لكونه

---

(١) رواه البخاري: (١٤٠٠)، ومسلم: (٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري: (١٤٥٨)، ومسلم: (١٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) رواه البخاري: (٤٤٤٤)، ومسلم: (٥٣١).

آخر واجب وأنه يجب خروج المرء به من الدنيا قول النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلَّا الله دخل الجنة»(١).

وقال أيضًا ﷺ كما في الصحيح: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلَّا الله دخل الجنة(٢).

الوجه العاشر: أن المرء لا يدخل في الإسلام ولا يصير موحِّدًا بمجرد إيمانه واعترافه بتوحيد الربوبية، ولو أفنى عمره في ذلك، حتى يؤمن ويقر بتوحيد الألوهية، ولذا قال ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

الوجه الحادي عشر: أن الله ﷻ لا ينظر إلى عمل أحد ولا يقبله إلَّا بعد أن يأتي بالتوحيد، ولذا بوب البخاري: (١/ ٧١):باب العلم قبل القول والعمل: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [محمد: ١٩].

وأعظم العلم وأشرفه هو العلم بالتوحيد، بما دلت عليه كلمة التوحيد، قال ﷻ: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

قوله: (وبيان ضده الذي هو الشرك بالله تعالى....)

اعلم - رحمك الله - أن الشرك بالله أعظم ذنب عصي الله به، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»(٣).

---

(١) رواه أبو داود: (٣١١٦)، وأحمد: (٢٢٠٨٧)، والطبراني في المعجم الكبير: (٢٢١)، والحاكم: (١٢٩٩)، من حديث معاذ رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٢) » رواه مسلم: (٢٦)، من حديث عثمان رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري: (٤٤٧٧)، ومسلم: (٨٦) واللفظ له.

والند هو المثل، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

ويتبين عظيم ضرر الشرك من وجوه(١):

الوجه الأول: أن الله لا يغفر الشرك إلَّا بالتوبة النصوح، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨].

الوجه الثاني: أنه لا يجوز الاستغفار للمشرك بعد موته، قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وقال ﷺ كما في صحيح مسلم رحمه الله: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»(٢).

الوجه الثالث: أن الشرك سبب دخول النار أبد الآبدين وعدم دخول الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

الوجه الرابع: أن الشرك يحبط العمل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

الوجه الخامس: أن الله ضرب للمشرك مثلا موبقًا هادمًا، فقال تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ

---

(١) ولي رسالة بينت فيها بطلان الشرك من عدة أوجه، وفيها مسائل مهمة، بعنوان: «القول الجلي في بيان بطلان المشروع المسمى: السلام عليك أيها النبي»، وقد قدم لها فضيلة شيخنا الشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى، وهي مطبوعة بفضل الله تعالى.

(٢) رواه مسلم: (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

الوجه السادس: أن الشرك رجس، وأن المشرك نجس، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨].

الوجه السابع: أن الشرك ظلم عظيم، قال الله ﷻ عن عبده لقمان وهو يوصي ابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

الوجه الثامن: أن الشرك أكبر ذنب على الإطلاق، فقد قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عنه أبو بكرة رضي الله عنه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قالها ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين...» الحديث[1]، فمن جعل لله تعالى ندًّا من خلقه فيما يستحقه ﷻ من الإلاهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة، فإن الله ﷻ هو المستحق للعبادة لذاتهِ، لأنه المألوه المعبود، الذي تألهه القلوب، وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقرٌ مقهور بالعبودية، فكيف يصلح أن يكون إلهًا! قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥١].

فإذا تقرر هذا، فالشرك إن كان شركًا يكفر به صاحبه هو **نوعان: شرك في الألوهية وشرك في الربوبية:**

* **فأما الشرك في الألوهية:** فهو أن يجعل لله ندًّا أي مثلًا في عبادته أو محبته،

---

(١) رواه البخاري: (٢٦٥٤)، ومسلم: (٨٧).

أو خوفه أو رجائه، أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلَّا بالتوبة. قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وهذا الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب، لأنهم أشركوا في الإلاهية، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، وقال النبي ﷺ لأبي الحصين: «كم تعبد اليوم إلهًا؟»، قال: سبعة، ستة في الأرض وواحدًا في السماء، قال: «فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟»، قال: الذي في السماء، قال: «يا حصين، أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك»، قال: فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال: «قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي»[1].

فكل من اتخذ لله شريكًا فإنه لا بد أن يكون مقدمًا على عبادة ذلك الشريك من بعض الوجوه، إما طلبًا لنفعه، أو هربًا من ضرره.

*وأما الربوبية: فكانوا مقرين بها، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث وترزق العالم وتدبره، وإنما كان شركهم أن اتخذوا من دون الله أندادًا.

فالرب سبحانه هو المالك المدبر المعطي المانع الضار النافع الخافض الرافع المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع أو الضار أو النافع أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك في ربوبيتِهِ، ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك، فلينظر إلى المعطي الأول فيشكره على ما أولاه من النعم، وهذه حقيقة

(١) رواه الترمذي: (٣٤٨٣)، والبزار: (٣٥٨٠)، وصححه ابن القيم رحمه الله في «الوابل الصيب»: (ص: ٢٣٠)، وشيخنا عبد الله الدويش رحمه الله في «تنبيه القاري على تقوية ما ضعفه الألباني»: (ص: ١١٠ - ١١١).

اسمه **(الأول)**، وينظر إلى من أسدى إليه معروفًا فيكافئه، لقوله ﷺ: «...ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»(١).

لأن النعم كلها لله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

فالله سبحانه هو المعطي على الحقيقة، فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها وساقها إلى من يشاء من عباده، فالمعطي هو الذي أعطاه، وحرك قلبه لعطاء غيره.

واعلم رحمك الله: «أن الله عز وجل عاب على المشركين **شيئين**:

أحدهما: أنهم أشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا.

الثاني: تحريمهم ما لم يحرمه الله.

وبين النبي ﷺ فيما رواه مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى:...وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا...» الحديث(٢).

وتصديق هذا في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

---

(١) رواه أبو داود: (١٦٧٢)، والنسائي: (٢٥٦٧)، وأحمد: (٥٧٤٣)، وابن حبان في صحيحه: (٣٤٠٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم: (٢٨٦٥).

فجمعوا بين الشرك والتحريم، والشرك يدخل فيه كل عبادة لم يأذن الله بها، ومنهم من عبد غير الله ليتقرب إلى الله، ومنهم من ابتدع دينًا عبدوا به الله، كما أحدثه النصارى من أنواع العبادات المحدثة، وأصل الضلال في أهل الأرض إنما نشأ من هذين، إما اتخاذ دين لم يشرعه الله، أو تحريم ما لم يحرمه الله...» ا. هـ[1].

و «أَنَّ الْإِسْلَامَ الَّذِي هُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ؛ وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ؛ وَهُوَ أَنْ يُسْلِمَ الْعَبْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَيَسْتَسْلِمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَكُونُ سَالِمًا لَهُ بِحَيْثُ يَكُونُ مُتَأَلِّهًا لَهُ غَيْرَ مُتَأَلِّهٍ لِمَا سِوَاهُ، كَمَا بَيَّنَتْهُ أَفْضَلُ الْكَلَامِ وَرَأْسُ الْإِسْلَامِ: وَهُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَلَهُ ضِدَّانِ: الْكِبْرُ وَالشِّرْكُ، وَلِهَذَا رُوِيَ: «أَنَّ نُوحًا عليه السلام أَمَرَ بَنِيهِ بِلَا إِلَهِ إِلَّا اللهُ وَسُبْحَانَ اللهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ الْكِبْرِ وَالشِّرْكِ»، فِي حَدِيثٍ قَدْ ذَكَرْته فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَإِنَّ الْمُسْتَكْبِرَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ لَا يَعْبُدُهُ فَلَا يَكُونُ مُسْتَسْلِمًا لَهُ، وَالَّذِي يَعْبُدُهُ وَيَعْبُدُ غَيْرَهُ يَكُونُ مُشْرِكًا بِهِ، فَلَا يَكُونُ سَالِمًا لَهُ بَلْ يَكُونُ لَهُ فِيهِ شِرْكٌ.

وَلَفْظُ «الْإِسْلَامِ» يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ وَالسَّلَامَةَ الَّتِي هِيَ الْإِخْلَاصُ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الرُّسُلَ جَمِيعَهُمْ بُعِثُوا بِالْإِسْلَامِ الْعَامِّ الْمُتَضَمِّنِ لِذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَالَ مُوسَى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١١٢]، وَقَالَ الْخَلِيلُ لَمَّا قَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ - أَيْضًا وَصَّى بِهَا بَنِيهِ -: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣١ - ١٣٢]، وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.

---

(١) انظر: الاقتضاء: (ص: ٢٦٩).

وَعُلِمَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ هُوَ إِمَامُ الْحُنَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَهُ، كَمَا جَعَلَهُ أُمَّةً وَإِمَامًا وَجَاءَتْ الرُّسُلُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بِذَلِكَ، فَابْتَدَعَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مَا ابْتَدَعُوهُ مِمَّا خَرَجَ بِهِمْ عَنْ دِينِ اللهِ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ الْعَامُّ، وَلِهَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَقُولَ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ»(١)، وَكُلٌّ مِنْ هَاتَيْنِ الْأُمَّتَيْنِ خَرَجَتْ عَنْ الْإِسْلَامِ وَغَلَبَ عَلَيْهَا أَحَدُ ضِدَّيْهِ؛ فَالْيَهُودُ يَغْلِبُ عَلَيْهِمْ الْكِبْرُ وَيَقِلُّ فِيهِمْ الشِّرْكُ، وَالنَّصَارَى يَغْلِبُ عَلَيْهِمْ الشِّرْكُ وَيَقِلُّ فِيهِمْ الْكِبْرُ.

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ فِي الْيَهُودِ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ٨٣]، وَهَذَا هُوَ أَصْلُ الْإِسْلَامِ، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]» ا. هـ(٢).

قوله: (ثم لما صار على أكثر الأمة ما صار....).

اعلم - رحمك الله -: أن أول من ظهر فيهم الشرك هم قوم نوح عليه السلام كما روى البخاري عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كانت لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ فَكَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَأ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ من قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فلم تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ

---

(١) رواه الترمذي: (٢٩٥٤).

(٢) انظر: كتاب الإيمان الأوسط: (ص: ١٦٩ - ١٧٠).

أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ؛ عُبِدَتْ»[١].

وقال مُحَمَّد بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويعوق ونسرا، قال: كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم» ا. هـ[٢].

وإن ما وقع في هذه الأمة من الشرك بعد التوحيد هو عين ما وقع في الأمم قبلنا، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

---

(١) رواه البخاري: (٤٩٢٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ٩٩).

فمن بقي منهم على دين الرسل فهو الموحد الناجي، كما في الحديث الصحيح عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»[1]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، وأكثرهم أشركوا مع الله فلم يدينوا بالدين الذي بعث الله ﷻ به رسله عليهم السلام.

قال ابن القيم رحمه الله: «ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»، وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه، وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكرًا والمنكر معروفًا والبدعة سنة والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانًا، والله المستعان» ا. هـ.[2]

---

(١) رواه مسلم: (٢٨٦٥).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٣٤٤).

قوله: (وأظهر لهم الشرك.... وأتباعهم)

اعلم رحمك الله: أن الشارع الحكيم سد جميع الذرائع التي تفضي إلى الشرك، وذلك من وجوه:

الوجه الأول: التحذير البالغ من الغلو، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»(١).

الوجه الثاني: النهي الشديد عن صورة ذي الروح، ولا سيما صور المعظمين. وقد ورد التغليظ في المصورين فيما لا يخفى عليكم، وأنه يؤمر يوم القيامة أن ينفخ فيها وليس بنافخ، قال ﷺ: «من صور صورة في الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»(٢).

الوجه الثالث: التحذير البالغ من بناء القبب والمساجد على القبور وأنها سبب مباشر للإشراك بالله تعالى، فقد قال النبي ﷺ: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تيك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»(٣).

الوجه الرابع: المنع الشديد والنهي البالغ عن تعظيم القبور بما لم يأذن به الشرع، كالصلاة إليها أو عليها أو بينها أو فيها، وتجصيصها وتزيينها والكتابة عليها أو مضاهاتها، فعن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تصلوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها»(٤).

---

(١) رواه النسائي: (٣٠٧٥)، وابن ماجة: (٣٠٢٩) واللفظ له، وأحمد: (١٨٥١)، وابن حبان في صحيحه: (٣٨٧١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الشيخ الألباني.

(٢) رواه البخاري: (٥٩٦٣)، ومسلم: (٢١١٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري: (٣٨٧٣)، ومسلم: (٥٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه مسلم: (٩٧٢).

الوجه الخامس: الأمر بهدم بناء القبب والمساجد على القبور والأمر بتسويتها، فقد قال ثمامة بن شفي: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[١]، يعني: تسوية القبور.

الوجه السادس: التحذير الشديد من زيارة القبور للصلاة في المساجد عليها أو الدعاء عندها، على ظن أن هذا أسرع إجابة، أو للتبرك بها أو جعلها عيدًا، أو للحج إليها يشد إليها الرحال، أو زيارتها لعبادة الله عندها في أي نوع كان من أنواع العبادة: من ذبح أو نذر أو اعتكاف أو قراءة القران أو غير ذلك، فان كل هذا من أعظم أسباب الوثنية، قال رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى»[٢].

الوجه السابع: نهى النبي ﷺ عن زيارة القبور مطلقًا، ثم إذنه بالزيارة وذلك للتزهيد بالدنيا وتذكير الآخرة والدعاء لأهل القبور بالمغفرة فقط، هذا هو الغرض من الإذن في زيارة القبور، لا لغرض آخر، وبدون شد الرحال والحج والسعي إليها، فقد قال النبي ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»[٣].

الوجه الثامن: الوعيد الشديد في تعظيم الإنسان بما لم يأذن به الشرع، فقد قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»[٤].

الوجه التاسع: التحذير من طاعة المخلوق في معصية الخالق لأن عواقبها وخيمة، ومنها التقليد الأعمى والتعصب الحزبي والتعصب المذهبي، وردُّ

---

(١) رواه مسلم: (٩٦٨).

(٢) رواه البخاري: (١١٨٩)، واللفظ له، ومسلم: (١٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم: (٩٧٧)، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

(٤) رواه أبو داود: (٥٢٢٩)، والترمذي: (٢٧٥٥)، واللفظ له، من حديث معاوية رضي الله عنه، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

النصوص لأجل أقوال الأئمة، فهذا من عبادة غير الله، قال ﷻ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

الوجه العاشر: الاحتراز عن التمائم والاحتياط في الرقى، لتمييز الرقية الشركية من الرقية السنية، ولذلك قال ﷺ: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له»(١).

الوجه الحادي عشر: النهي عن الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله أو في معبد للمشركين أو وثن لهم أو عيد من أعيادهم، فقد قال ثابت بن الضحاك رضي الله عنه: نذر رجل على عهد النبي ﷺ أن ينحر إبلًا ببوانة، فأتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلًا ببوانة؟ فقال النبي ﷺ: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»، قالوا: لا، قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟»، قالوا: لا، قال النبي ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»(٢).

الوجه الثاني عشر: التحذير الشديد من كل ما فيه وسيلة إلى الشرك بحجر أو شجر سد لذريعة الشرك، فقد قال عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه حين قبل الحجر الأسود: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك»(٣).

الوجه الثالث عشر: المنع عن تتبع آثار الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فضلًا عن الأولياء والصالحين؛ لتقبلها واستلامها والالتزام بها وإجلالها أو التبرك بها أو الصلاة فيها أو الدعاء فيها وعندها، من مساجدهم أو بيوتهم أو مجالسهم أو مقاماتهم ونحوها، فيما لم يرد في الشرع الترغيب في تتبعها، ولذا قال المعرور بن سويد: خرجنا مع عمر في حجة حجها فقرأ بنا في صلاة

---

(١) رواه أحمد: (١٧٤٤٠)، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه: (٦٠٨٦)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود: (٣٣١٥)، واللفظ له، وابن ماجه: (٢١٣٠)، وأحمد: (٢٣٢٤٤).

(٣) رواه البخاري: (١٥٩٧)، ومسلم: (١٢٧٠).

الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، و: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، فلما قضى حجه ورجع والناس يبتدرون، فقال: ما هذا؟ فقالوا: مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال عمر: هكذا هلك أهل الكتاب، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا، من عرضت له منكم صلاة فيه فليصل، ومن لم تعرض له منكم فيه الصلاة فلا يصلي»[(١)].

قوله: (وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوهٍ شتى بكلام يفهمهُ أبلد العامة....)

أي في بيان التوحيد، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد»[(٢)].

وعن عكرمة قال: «جميع ما ذكر في القرآن من العبادة التوحيد» ا. هـ[(٣)].

فالتوحيد سبب لنظام العالم بأسره، ألا ترى «**أنه لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: لا إله إلَّا الله**»[(٤)].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة: (٢/ ٢٧٠)، وعبد الرزاق: (٢/ ١١٨)، وصححه شيخ الإسلام في الاقتضاء: (ص: ٣٨٦)، والألباني في حجة النبي ﷺ: (ص ١٠٩).

(٢) ا. هـ. انظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٥٠).

(٣) انظر: تفسير روح البيان: (١/ ٨).

(٤) رواه أحمد (١٣٨٦٠)، والحاكم في المستدرك (٨٥١٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وإسناده على شرط مسلم.

قوله: (وأظهر لهم الشرك بالله، في صورة محبة الصالحين وأتباعهم....).

اعلم رحمك الله: أن أعظم الشُّبه التي أوحى بها الشيطان إلى أوليائه من الجن والإنس أن عبادة الله لا بد فيها من وسائط بين الله وبين خلقه، كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما من يأتي إلى قبر نبي أو صالح، أو من يعتقد فيه أنه قبر نبي أو رجل صالح، وليس كذلك، ويسأله ويستنجده، فهذا على ثلاث درجات:

إحداها: أن يسأله حاجته مثل أن يسأله أن يزيل مرضه أو مرض دوابه أو يقضي دينه أو ينتقم له من عدوه أو يعافي نفسه وأهله ودوابه ونحو ذلك، مما لا يقدر عليه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ فهذا شرك صريح، يجب أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل، وإن قال: أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور لأني أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه، فهذا من أفعال المشركين والنصارى فإنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم في مطالبهم، وكذلك أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الزمر: ٣].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣ - ٤٤].

وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فبين الفرق بينه وبين خلقه، فإن من عادة الناس أن يستشفعوا إلى الكبير من كبرائهم بمن يكرم عليه فيسأله ذلك الشفيع فيقضي حاجته، إما رغبة وإما رهبة وإما حياء وإما مودة وإما غير ذلك، والله سُبْحَانَهُ لا يشفع عنده أحد حتى

يأذن هو للشافع، فلا يفعل إلَّا ما شاء، وشفاعة الشافع من إذنه فالأمر كله له.

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإنه لا مستكره له»(١).

فبين أن الرب سبحانه يفعل ما يشاء لا يكرهه أحد على ما اختاره، كما قد يكره الشافع المشفوع إليه، وكما يكره السائل المسؤول إذا ألح عليه وآذاه بالمسألة، فالرغبة يجب أن تكون إليه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧ - ٨]. والرهبة تكون من الله كما قال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد أمرنا أن نصلي على النبي ﷺ في الدعاء وجعل ذلك من أسباب إجابة دعائنا.

وقال كثير من الضلال: هذا أقرب إلى الله مني وأنا بعيد من الله لا يمكنني أن أدعوه إلَّا بهذه الواسطة، ونحو ذلك من أقوال المشركين، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقد روي أن الصحابة قالوا: «يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟»، فأنزل الله هذه الآية، وفي الصحيح أنهم كانوا في سفر وكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس!: اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، بل تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(٢)، وقد أمر الله تعالى العباد كلهم بالصلاة له ومناجاته، وأمر كلًّا منهم أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقد أخبر عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، ثم يقال لهذا المشرك: أنت إذا دعوت هذا فإن كنت تظن أنه أعلم

---

(١) رواه البخاري: (٦٣٣٩)، ومسلم: (٢٦٧٩).

(٢) رواه أحمد: (١٩٥٩٩) واللفظ له، والبخاري: (٧٣٨٦)، ومسلم: (٢٧٠٤).

بحالك وأقدر على عطاء سؤالك أو أرحم بك فهذا جهل وضلال وكفر، وإن كنت تعلم أن الله أعلم وأقدر وأرحم فلم عدلت عن سؤاله إلى سؤال غيره؟ ألا تسمع إلى ما خرجه البخاري وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا همَّ أحدكم بأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به، قال: ويسمي حاجته»، أمر العبد أن يقول: «أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم»، وإن كنت تعلم أنه أقرب إلى الله منك وأعلى درجة عند الله منك فهذا حق، لكن كلمة حق أريد بها باطل، فإنه إذا كان أقرب منك وأعلى درجة منك فإنما معناه أن يثيبه ويعطيه أكثر مما يعطيك، ليس معناه أنك إذا دعوته كان الله يقضي حاجتك أعظم مما يقضيها إذا دعوت أنت الله تعالى، فإنك إن كنت مستحقًّا للعقاب ورد الدعاء -مثلًا لما فيه من العدوان- فالنبي والصالح لا يعين على ما يكره الله، ولا يسعى فيما يبغضه الله، وإن لم يكن كذلك فالله أولى بالرحمة والقبول.

طلب الدعاء من الغير حيًّا كان أو ميتًا:

وإن قلت: هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيبه إذا دعوته، فهذا هو:

القسم الثاني: وهو أن لا تطلب منه الفعل ولا تدعوه، ولكن تطلب أن يدعو لك، كما تقول للحي: ادع لي، وكما كان الصحابة رضوان الله عليهم يطلبون من النبي ﷺ الدعاء، فهذا مشروع في الحي كما تقدم، وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول: ادع لنا، ولا: اسأل لنا

ربك، ولم يفعل هذا أحد من الصحابة والتابعين ولا أمر به أحد من الأئمة، ولا ورد فيه حديث، بل الذي ثبت في الصحيح: أنهم لما أجدبوا زمن عمر رضي الله عنه استسقى بالعباس وقال: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا» فيسقون، ولم يجيئوا إلى قبر النبي ﷺ قائلين: يا رسول الله! ادع الله لنا، واستسق لنا، ونحن نشكو إليك مما أصابنا، ونحو ذلك، لم يفعل ذلك أحد من الصحابة قط بل هو بدعة[1] ما أنزل الله بها من سلطان، بل كانوا إذا جاءوا عند قبر النبي ﷺ يسلمون عليه، فإذا أرادوا الدعاء لم يدعوا الله مستقبلي القبر الشريف بل ينحرفون ويستقبلون القبلة ويدعون الله وحده لا شريك له، كما يدعونه في سائر البقاع، وذلك أن في الموطأ وغيره عنه ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2]، وفي السنن عنه أنه قال: «لا تتخذوا

---

(١) قول الشيخ رحمه الله: بدعة، لا يعني أنه دون الشرك، فإن الشرك أعظم البدع، وقد دل كتاب الله تعالى على أن هذا الفعل من أعمال المشركين:
قال تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ [سورة يونس: ٢٩]: وفيها من العلم: أن الأموات من الأنبياء وغيرهم لا يسمعون دعاء من يدعوهم، ولا يعلمون بعبادة من يعبدهم، ونظيرها قوله تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤].
روى ابن جرير عن مجاهد رحمهما الله في قوله تعالى: (إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ) قال: كل شيء عبد من دون الله تعالى.
ويبقى ما دل الدليل عليه كرد السلام، فهذا ليس من العبادة لغير الله بل من شرع الله، وعليه فإن من سأل الميت أن يشفع له فإنه مشرك الشرك الأكبر، ولو لم يدعوه مباشرة، لأنه من طلب الزلفى الذي كان يفعله المشركون، وهكذا سؤال الملائكة، مثل أن يقول: يا جبريل اشفع لي، فذلك كله من دعاء غير الله وصرف العبادة لغير الله.
قال تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧].

(٢) رواه مالك في الموطأ (٨٥)، وأحمد (٧٣٥٨).

قبري عيدًا وصلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني»[١]، وفي الصحيح عنه أنه قال في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما فعلوا، قالت عائشة رضي الله عنها وعن أبويها: «ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجدًا»[٢]، وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال قبل أن يموت بخمس: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[٣]، وفي سنن أبي داود عنه قال: «لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»[٤]، وفي الجزء الأخير من الحديث ضعف، ولهذا قال علماؤنا: لا يجوز بناء المسجد على القبور، وقالوا: إنه لا يجوز أن ينذر لقبر ولا للمجاورين عند القبر شيئًا من الأشياء، لا من درهم ولا من زيت ولا من شمع ولا من حيوان ولا غير ذلك؛ كله نذر معصية، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[٥]، واختلف العلماء: هل على الناذر كفارة يمين؟ على قولين، ولهذا لم يقل أحد من أئمة السلف أن الصلاة عند القبور وفي مشاهد القبور مستحبة أو فيها فضيلة، ولا أن الصلاة هناك والدعاء، أفضل من الصلاة في غير تلك البقعة والدعاء بل اتفقوا كلهم على أن الصلاة في المساجد والبيوت أفضل من الصلاة عند القبور -قبور الأنبياء والصالحين- سواء سميت مشاهد أو لم تسم. وقد شرع الله ورسوله في المساجد دون المشاهد أشياء، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤]، ولم يقل: المشاهد.

وقال تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ولم يقل: في المشاهد.

---

(١) رواه أحمد (٨٨٠٤)، وأبو داود (٢٠٤٢).
(٢) رواه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩).
(٣) رواه مسلم (٥٣٢).
(٤) رواه أبو داود (٣٢٣٦).
(٥) رواه البخاري (٦٦٩٦)، وأبو داود (٣٢٨٩).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨].

وقال ﷺ: «صلاة الرجل في المسجد تفضل على صلاته في بيته وسوقه بخمس وعشرين ضعفًا»، وقال ﷺ: «من بنى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة»(١)، وأما القبور فقد ورد نهيه ﷺ عن اتخاذها مساجد، ولعن من يفعل ذلك، وقد ذكره غير واحد من الصحابة والتابعين. كما ذكره البخاري في صحيحه والطبراني وغيره في تفاسيرهم، وذكره وثيمة وغيره في قصص الأنبياء، في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]، قالوا: «هذه أسماء قوم صالحين كانوا من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم طال عليهم الأمد فاتخذوا تماثيلهم أصنامًا»، وكان العكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها وفيها ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان، ولهذا قال النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد»(٢)، واتفق العلماء على أن من زار قبر النبي ﷺ أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين؛ الصحابة وأهل البيت وغيرهم: أنه لا يتمسح به ولا يقبله، بل ليس في الدنيا من الجمادات ما يشرع تقبيلها إلَّا الحجر الأسود، وقد ثبت في الصحيحين أن عمر رضي الله عنه قال: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»، ولهذا لا يسن باتفاق الأئمة أن يقبل الرجل أو يستلم ركني البيت اللذين يليان الحجر،

---

(١) رواه الترمذي (٣١٩)، وابن ماجه (٧٣٥).

(٢) تقدّم تخريجه.

ولا جدران البيت ولا مقام إبراهيم ولا صخرة بيت المقدس ولا قبر أحد من الأنبياء والصالحين.

حتى تنازع الفقهاء في وضع اليد على منبر سيدنا رسول الله ﷺ لما كان موجودًا، فكرهه مالك وغيره لأنه بدعة، وذكر أن مالكًا، لما رأى عطاء فعل ذلك لم يأخذ عنه العلم، ورخص فيه أحمد وغيره لأن ابن عمر رضي الله عنهما فعله.

وأما التمسح بقبر النبي ﷺ وتقبيله فكلهم كره ذلك ونهى عنه، وذلك لأنهم علموا ما قصده النبي ﷺ من حسم مادة الشرك وتحقيق التوحيد وإخلاص الدين لله رب العالمين.

ولم يثبت عن ابن عمر وضع اليد على المنبر.

وهذا ما يظهر الفرق بين سؤال النبي ﷺ والرجل الصالح في حياته وبين سؤاله بعد موته وفي مغيبه، وذلك أنه في حياته لا يعبده أحد بحضوره، فإذا كان الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحون أحياء لا يتركون أحدًا يشرك بهم بحضورهم بل ينهونهم عن ذلك ويعاقبونهم عليه، ولهذا قال المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله ندًّا، ما شاء الله وحده»[١]، وقال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»[٢]، ولما قالت الجويرية: وفينا رسول الله يعلم ما في غد، قال: «دعي هذا وقولي بالذي كنت تقولين»[٣]، وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»[٤]، ولما صفوا خلفه قيامًا

---

(١) رواه أحمد (١٨٣٩) بلفظ: عدلًا.

(٢) رواه أحمد (٢٠٦٩٤)، وابن ماجه (٢١١٨).

(٣) رواه البخاري (٤٠٠١)، والترمذي (١٠٩٠).

(٤) رواه النسائي في الكبرى (١٠٧٥٨).

قال: «لا تعظموني كما تعظم الأعاجم بعضهم بعضًا»[١]، وقال أنس: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك»، ولما سجد له معاذ نهاه وقال: «إنه لا يصلح السجود إلَّا لله، ولو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»[٢]، ولما أتي علي بالزنادقة الذين غلوا فيه واعتقدوا فيه الإلهية أمر بتحريقهم بالنار. فهذا شأن أنبياء الله وأوليائه، وإنما يقر على الغلو فيه وتعظيمه بغير حق من يريد علوًّا في الأرض وفسادًا؛ كفرعون ونحوه ومشايخ الضلال الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد والفتنة بالأنبياء والصالحين واتخاذهم أربابًا والإشراك بهم، مما يحصل في مغيبهم وفي مماتهم، كما أشرك بالمسيح وعزير. فهذا مما يبين الفرق بين سؤال النبي ﷺ والصالح في حياته وحضوره وبين سؤاله في مماته ومغيبه. ولم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين يتحرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم، ولا يستغيثون بهم لا في مغيبهم ولا عند قبورهم، وكذلك العكوف. ومن أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب -كما ذكره السائل -ويستغيث به عند المصائب، يقول: يا سيدي فلان! كأنه يطلب منه إزالة ضره أو جلب نفعه. وهذا حال النصارى في المسيح وأمه وأحبارهم ورهبانهم، ومعلوم أن خير الخلق وأكرمهم على الله نبينا محمد ﷺ وأعلم الناس بقدره وحقه أصحابه، ولم يكونوا يفعلون شيئًا من ذلك لا في مغيبه ولا بعد مماته. وهؤلاء المشركون يضمون إلى الشرك الكذب، فإن الكذب مقرون بالشرك، وقد قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠ - ٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) رواه أحمد (١٢٦١٤)، وابن ماجه (١٨٥٣).

(٢) رواه أحمد (١٥٤٠)، والبخاري (٣٤٤٥).

﴿ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال الخليل عليه السلام: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٦ - ٨٧]، فمن كذبهم أن أحدهم يقول عن شيخه: إن المريد إذا كان بالمغرب وشيخه بالمشرق وانكشف غطاؤه رد عليه، وإن الشيخ إن لم يكن كذلك لم يكن شيخًا. وقد تغويهم الشياطين كما تغوي عباد الأصنام، كما كان يجري في العرب في أصنامهم ولعباد الكواكب وطلاسمها من الشرك والسحر، كما يجري للتتار والهند والسودان وغيرهم من أصناف المشركين من إغواء الشياطين ومخاطبتهم ونحو ذلك. فكثير من هؤلاء قد يجري له نوع من ذلك لا سيما عند سماع المكاء والتصدية، فإن الشياطين قد تنزل عليهم، وقد يصيب أحدهم كما يصيب المصروع من الإرغاء والإزباد والصياح المنكر ويكلمه بما لا يعقل هو والحاضرون، وأمثال ذلك مما يمكن وقوعه في هؤلاء الضالين.

التوسل بالجاه والحرمة:

وأما **القسم الثالث**: وهو أن يقول: اللهم بجاه فلان عندك، أو ببركة فلان، أو بحرمة فلان عندك، افعل بي كذا وكذا، فهذا يفعله كثير من الناس، لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء، ولم يبلغني عن أحد من العلماء في ذلك ما أحكيه، إلَّا ما رأيت في فتاوي الفقيه أبي محمد بن عبد السلام، فإنه أفتى أنه لا يجوز لأحد أن يفعل ذلك إلَّا للنبي ﷺ -إن صح الحديث في النبي ﷺ. ومعنى الاستفتاء: قد روى النسائي والترمذي وغيرهما: أن النبي ﷺ علم بعض أصحابه أن يدعو فيقول: «اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد يا رسول الله! إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي، اللهم فشفعه في»[1]، فإن هذا الحديث قد استدل به طائفة على جواز التوسل بالنبي ﷺ

(١) رواه الترمذي ٣٥٧٨، والنسائي في الكبرى (١٠٤٢٠).

في حياته وبعد مماته، قالوا: وليس في التوسل دعاء المخلوقين ولا استغاثة بالمخلوق، وإنما هو دعاء واستغاثة بالله، لكن فيه سؤال بجاهه كما في سنن ابن ماجه عن النبي ﷺ أنه ذكر في دعاء الخارج للصلاة أن يقول: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت»[(١)]، قالوا: ففي هذا الحديث أنه سأل بحق السائلين عليه وبحق ممشاه إلى الصلاة، والله تعالى قد جعل على نفسه حقًّا، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ونحو قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٦]، وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له:«يا معاذ! أتدري ما حق الله على العباد؟»، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ فإن حقهم عليه أن لا يعذبهم»[(٢)]، وقد جاء في غير حديث: «كان حقًّا على الله كذا كذا»، كقوله: «من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يومًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد فشربها في الثالثة أو الرابعة كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال»، قيل: وما طينة الخبال؟ قال: «عصارة أهل النار».[(٣)]

وقالت طائفة: ليس في هذا جواز التوسل به وبعد مماته وفي مغيبه، بل إنما فيه التوسل في حياته بحضوره، كما في صحيح البخاري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس، فقال: «اللَّهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون»[(٤)]،وقد بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنهم كانوا يتوسلون به في حياته فيسقون، وذلك التوسل

---

(١) رواه ابن ماجه (٧٧٨).

(٢) رواه أحمد (٢١٩٩١)، والبخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

(٣) رواه أحمد (٤٩١٧)، والترمذي (١٨٦٢)، وابن ماجه (٣٣٧٧).

(٤) رواه البخاري (١٠١٠).

به أنهم كانوا يسألونه أن يدعو الله لهم فيدعو لهم ويدعون معه ويتوسلون بشفاعته ودعائه، كما في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلًا دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان بجوار دار القضاء، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله لنا أن يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر»، قال: وأقلعت فخرجنا نمشي في الشمس، ففي هذا الحديث أنه قال: «ادع الله لنا أن يمسكها عنا»، وفي الصحيح: أن عبد الله بن عمر قال: إني لأذكر قول أبي طالب في رسول الله ﷺ حيث يقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[1]

فهذا كان توسلهم به في الاستسقاء ونحوه، ولما مات توسلوا بالعباس رضي الله عنه كما كانوا يتوسلون به ويستسقون، وما كانوا يستسقون به بعد موته ولا في مغيبه ولا عند قبره ولا عند قبر غيره،...، والعبادة مبناها على السنة والاتباع، لا على الأهواء والابتداع، وإنما يعبد الله بما شرع لا يعبد بالأهواء والبدع، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال النبي ﷺ: «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطهور»[2] ا. هـ[3].

(١) رواه البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧).

(٢) رواه أحمد (١٤٨٣)، وأبو داود (١٤٨٠)، وابن ماجه (٣٨٦٤).

(٣) انظر: زيارة القبور: (ص: ١٨ - ٤٤).

الأصل الثاني:

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه، فبين الله هذا بيانًا شافيًا تفهمه العوام، ونهانا أن نكون كالّذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرق فيه. ويزيده وضوحًا ما وردت به السنة من العجب العجاب في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين، وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلَّا زنديق أو مجنون» ا. هـ.

الشرح

قوله: (أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه، فبين الله هذا بيانًا شافيًا تفهمه العوام... إلخ)

هذه القاعدة مكملة ومتممة للقاعدة السابقة، فإنه لا يمكن للمسلمين أن يجتمعوا ولا يتفرقوا إلَّا إذا كان اعتقادهم ومنهاجهم وشرعهم واحد.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقد جاء في السنة بيان كيف يكون الاجتماع، وبيان قواعده:

قال ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بالله جميعًا، وأن لا تتفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم...»[1].

---

(١) رواه مسلم: (٤٥٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

القاعدة الأولى: الاجتماع على التوحيد، وأشار إليها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا».

القاعدة الثانية: الاجتماع على المنهاج، وأشار إليها النبي ﷺ بقوله: «وأن تعتصموا بالله جميعًا».

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

«قال: فما معنى أمر النبي ﷺ بلزوم جماعتهم؟

قلت: لا معنى له إلَّا واحد.

قال: فكيف لا يحتمل إلَّا واحدًا؟

قلت: إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة وأبدان قوم متفرقين، وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين والأتقياء والفجار، فلم يكن في لزوم الأبدان معنى لأنه لا يمكن، ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئًا، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى إلَّا ما عليهم جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما.

ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها» ا. هـ[1].

القاعدة الثالثة: الاجتماع على إمام واحد، وأشار النبي ﷺ لهم بقوله: «وأن تناصحوا».

الأدلة على هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: قَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ فِي السُّنَنِ مِنْ رِوَايَةِ فَقِيهَي الصَّحَابَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ: «ثَلَاثٌ

(١) انظر: الرسالة: (١/ ٤٤٤).

لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ؛ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[(١)]، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَحْفُوظِ: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ»[(٢)]، فَقَدْ جَمَعَ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ:

- إِخْلَاصِ الْعَمَلِ لِلَّهِ.
- وَمُنَاصَحَةِ أُولِي الْأَمْرِ.
- وَلُزُومِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَهَذِهِ الثَّلَاثُ تَجْمَعُ أُصُولَ الدِّينِ وَقَوَاعِدَهُ وَتَجْمَعُ الْحُقُوقَ الَّتِي لِلَّهِ وَلِعِبَادِهِ، وَتَنْتَظِمُ مَصَالِحَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» ا. هـ[(٣)].

من هم أهل السنة؟

أهل السنة والجماعة، هم سلف الأمة وأئمتها، ومن تبعهم بإحسان، وهو الصراط المستقيم، الذي أُمر المسلمون جميعًا بسلوكه واتباعه، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣ - ١٠٦].

أخرج ابن أبي حاتم وأبو نصر في الإبانة والخطيب في تاريخه

---

(١) رواه أحمد (١٣٣٥٠)، والترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠).

(٢) رواه أحمد (٨٧٩٩)، ومسلم (١٧١٥).

(٣) انظر مجموع الفتاوى: (١/ ١٨).

واللالكائي في السنة عن ابن عباس في هذه الآية، قال: ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال: «تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدع والضلالة»، وأخرج الخطيب في رواة مالك والديلمي عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال: «تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدع»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

عن أبي بن كعب قال: «عليكم بالسبيل والسنة، فإن ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فمسته النار أبدًا، وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الله فاقشعر جلده من خشية الله إلَّا كان مثله كمثل شجرة يبس ورقها، فهي كذلك إذ أصابتها ريح فتحات ورقها عنها إلَّا تحاتت خطاياه كما يتحات من هذه الشجرة ورقها، وإن اقتصادًا في سنة وسبيل خير من اجتهاد سنة في غير سنة وسبيل، فانظروا أعمالكم، فإن كانت اقتصادًا واجتهادًا أن تكون على منهاج الأنبياء وسنتهم»(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، أي لا تكونوا من المشركين الذين قد: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، أي بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

وقرأ بعضهم: ﴿فارقوا دينهم﴾، أي تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩] الآية، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما

---

(١) انظر: الدر المنثور: (٢/ ٢٩١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة: (٨/ ٢٩٧).

بينهم على آراء ومثل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضًا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلَّا واحدة وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه: أنه سئل رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال: «ما أنا عليه وأصحابي»[1] ا. هـ[2].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الجمعة: ٢ - ٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالأولون: هم الذين أدركوا رسول الله ﷺ وصحبوه. والآخرون: هم الذين لم يلحقوهم، وهم كل من بعدهم على منهاجهم إلى يوم القيامة، فيكون التأخر وعدم اللحاق بهم في الزمان. وفي الآية قول آخر: إن المعنى لم يلحقوا بهم في الفضل والرتبة، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في الرتبة. والقولان كالمتلازمين، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في الزمان، فهؤلاء الصنفان هم السعداء. وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله ولم يرفع به رأسًا فهو من الصنف الثالث وهم: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ ﴾ [الجمعة: ٥]»[3]. ا. هـ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «... فأمر سُبْحَانَهُ في «أم الكتاب» التي لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، والتي أعطيها من كنز تحت العرش، التي لا تجزئ صلاة إلَّا بها: أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم: كاليهود، ولا

---

(١) مستدرك الحاكم (٤٤٤).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٥).

(٣) انظر: الرسالة التبوكية: (ص: ٣).

الضالين: كالنصارى، وهذا «الصراط المستقيم» هو دين الإسلام المحض، وهو ما في كتاب الله تعالى، وهو السنة والجماعة؛ فإن السنة المحضة هي دين الإسلام المحض» ا. هـ[١].

والمقصود بأهل السنة والجماعة:

الاصطلاح الخاص، فإن للفظ أهل السنة اصطلاحين اصطلاح العامة واصطلاح الخاصة، فأهل السنة هم:

«أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلَّا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول: إن القرآن غير مخلوق، وأن الله يُرى في الآخرة، ويثبت القدر، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة، والاصطلاح العام هو اصطلاح العامة: كل من ليس برافضي، قالوا: هو من أهل السنة» ا. هـ[٢].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وأحمد بن حنبل، وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة والصبر في المحنة، فليس ذلك لأنه انفرد بقول، أو ابتدع قولًا، بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها وصبر على من امتحنه ليفارقها، وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة، فلما وقعت محنة الجهمية نفاة الصفات في أوائل المائة الثالثة، على عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق، ودعوا الناس إلى التجهم وإبطال صفات الله تعالى، وهو المذهب الذي ذهب إليه متأخرو الرافضة، وكانوا قد أدخلوا معهم من أدخلوه من ولاة الأمور، فلم يوافقهم أهل السنة والجماعة، حتى تهددوا بعضهم بالقتل، وقيدوا بعضهم، وعاقبوهم وأخذوهم بالرهبة والرغبة، وثبت الإمام أحمد بن حنبل على ذلك الأمر حتى حبسوه مدة، ثم طلبوا أصحابهم لمناظرته، فانقطعوا معه في المناظرة يومًا بعد يوم، ولم يأتوا بما يوجب موافقته لهم، بل بيَّن خطأهم

---

(١) انظر: الفتاوى (٣/ ٣٦٩).

(٢) انظر: منهاج السنة: (٢/ ٢٢١).

فيما ذكروه من الأدلة،...، وأحمد وغيره من علماء أهل السنة والحديث ما زالوا يعرفون فساد مذهب الروافض والخوارج والقدرية الجهمية والمرجئة، ولكن بسبب المحنة كثر الكلام، ورفع الله قدر هذا الإمام، فصار إمامًا من أئمة السنة، وعلمًا من أعلامها، لقيامه بإعلامها وإظهارها، واطِّلاعه على نصوصها وآثارها، وبيانه لخفيِّ أسرارها، لا لأنه أحدث مقالة أو ابتدع رأيًا، ولهذا قال بعض شيوخ المغرب: المذهب لمالك والشافعي، والظهور لأحمد؛ يعني: أن مذاهب الأئمة في الأصول مذهب واحد، وهو كما قال» ا. هـ[1].

خصائص أهل السنة والجماعة:

الخصيصة الأولى: هم صفوة الله من خلقه وخير البشر:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤]. «صفوة أولياء الله تعالى الذين لهم في الأمة لسان صدق، من سلف الأمة وخلفها، هم على مذهب أهل السنة والجماعة» ا. هـ[2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلَّا واحدة، وهي الجماعة، وفي حديث عنه ﷺ أنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[3]، صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة؛ وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون، ومنهم أعلام الهدى؛ ومصابيح الدجى؛ أولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة؛ وفيهم الأبدال: الأئمة الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم

---

(١) انظر: منهاج السنة: (٢/ ٦٠١ - ٦٠٦).

(٢) انظر: درء التعارض: (٢/ ٣٢٨).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤٤٤).

النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»[١] فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب» ا. هـ[٢].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل؛ وذلك أن كل أمة غير المسلمين فهم ضالون، وإنما يضلهم علماؤهم؛ فعلماؤهم شرارهم، والمسلمون على هدى وإنما يتبين الهدى بعلمائهم، فعلماؤهم هم خيارهم؛ وكذلك أهل السنة، أئمتهم خيار الأمة. وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب، ولهذا أمر النبي ﷺ بقتل الخوارج؛ ونهى عن قتال الولاة الظلمة...» ا. هـ[٣].

وقال أيضًا: «أهل الكتاب والسنة إما قائمون بظاهر الشرع فقط، كعموم أهل الحديث والمؤمنين، الذين في العلم بمنزلة العُبَّاد الظاهرين في العبادة، وإما عالمون بمعاني ذلك وعارفون به...، فهؤلاء هم علماء أمة مُحَمَّد المحضة، وهم أفضل الخلق، وأكملهم، وأقومهم طريقة» ا. هـ[٤].

وقال: «فإن المنتسبين إلى السنة والحديث وإن كانوا أصلح من غيرهم من أشباههم، فالسنة في الإسلام كالإسلام في الملل، كما أنه يوجد في المنتسبين إلى الإسلام ما يوجد في غيرهم، وإن كان كل خير في غير المسلمين فهو في المسلمين أكثر، وكل شر في المسلمين فهو في غيرهم أكثر، فكذلك المنتسبة إلى السنة - قد يوجد فيهم ما يوجد في غيرهم، وإن كان كل خير في غير أهل السنة فهو فيهم أكثر، وكل شر فيهم فهو في غيرهم أكثر» ا. هـ[٥].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٤٠٣)، والبخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٠٣٧).
(٢) انظر: الفتاوى (٣/ ١٥٩).
(٣) انظر: الفتاوى (٧/ ٢٨٤).
(٤) انظر: الفتاوى (٢٠/ ٤٤).
(٥) انظر: الفتاوى (١٢/ ٤٥٥ - ٤٥٦).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشر الذي دخل في غير المسلمين أكثر مما دخل في المسلمين، والخير الذي يوجد في المسلمين أكثر مما يوجد في غيرهم، وكذلك أهل السنة في الإسلام الخير فيهم أكثر منه في أهل البدع، والشر الذي في أهل البدع أكثر منه في أهل السنة.» ا. هـ[١].

وقال: «وقلنا غير مرة: نحن لا ننكر أن يكون في بعض أهل السنة من يقول الخطأ، لكن لا يتفقون على خطأ كما تتفق الإمامية على خطأ، بل كل مسألة خالفت فيها الإمامية أهل السنة فالصواب فيها مع أهل السنة، وأما ما تنازع فيه أهل السنة وتنازعت فيه الإمامية، فذاك لا اختصاص له بأهل السنة ولا بالإمامية» ا. هـ[٢].

وقال: «وأهل السنة والجماعة لا يمكن أن يعمهم معنى مذموم في الكتاب والسنة بحال، نعم يوجد في بعضهم ما هو مذموم، ولكن هذا لا يلزم منه ذمهم، كما أن المسلمين إذا كان فيهم من هو مذموم لذنب ركبه، لم يستلزم ذلك ذم الإسلام وأهله القائمين بواجباته» ا. هـ[٣].

وقال أيضًا: «والله تعالى قد ضمن العصمة للأمة، فمن تمام العصمة أن يجعل عددًا من العلماء إن أخطأ الواحد منهم في شيء كان الآخر قد أصاب فيه حتى لا يضيع الحق...، فلم يتفق أهل السنة على ضلالة أصلًا، وأما خطأ بعضهم في بعض الدين، فقد قدّمنا غير مرة أن هذا لا يضر، كخطأ بعض المسلمين» ا. هـ[٤].

الخصيصة الثانية: هم الذين حفظ الله بهم الدين:

قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ

(١) انظر: المنهاج: (١/ ٢١٤، ٢١٥).
(٢) انظر: المنهاج: (٣/ ١١٠).
(٣) انظر: منهاج السنة: (٢/ ٦٠٩).
(٤) انظر: المنهاج: (٣/ ٤٠٨، ٤٠٩).

إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقال تعالى ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۗ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولكنَّ هذه الأمة حفظ الله لها ما أنزله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فما في تفسير القرآن، أو نقل الحديث أو تفسيره من غلط؛ فإن الله يقيم له من الأمة من يبينه، ويذكر الدليل على غلط الغالط، وكذب الكاذب، فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة، إذ كانوا آخر الأمم فلا نبي بعد نبيهم، ولا كتاب بعد كتابهم، وكانت الأمم قبلهم إذا بدلوا وغيروا بعث الله نبيًّا يبين لهم ويأمرهم وينهاهم، ولم يكن بعد محمد ﷺ نبي، وقد ضمن الله أنه يحفظ ما أنزله من الذكر، وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، بل أقام الله لهذه الأمة في كل عصر من يحفظ به دينه من أهل العلم والقرآن، وينفي به تحريف الغالين، وانتحال المضلين، وتأويل الجاهلين» ا. هـ[1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولم يظهر دين مُحَمَّد ﷺ قط على غيره من الأديان إلَّا بأهل السنة، كما ظهر في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ظهورًا لم يحصل لشيء من الأديان، وعلي رضي الله عنه مع أنه من الخلفاء الراشدين، ومن سادات السابقين الأولين، فلم يظهر في خلافته دين الإسلام، بل وقعت الفتنة بين أهله، وطمع فيهم عدوهم من الكفّار والنصارى والمجوس بالشام والمشرق، وأما بعد عليّ فلم يُعرَف أهل علم ودين، ولا أهل يد وسيف،

(١) انظر: الجواب الصحيح: (٣/ ٣٨ - ٣٩).

نصر الله بهم الإسلام إلَّا أهل السنة». ا. هـ[١].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «... فإن المسلمين الذين يقيمون دين الإسلام في الشرق والغرب، قديمًا وحديثًا، هم الجمهور، والرافضة ليس لهم سعي إلَّا في هدم الإسلام، ونقض عراه، وإفساد قواعده، والقدر الذي عندهم من الإسلام إنما قام بسبب قيام الجمهور به، ولهذا قراءة القرآن فيهم قليلة، ومن يحفظه حفظًا جيدًا فإنما تعلّمه من أهل السنة، وكذلك الحديث إنما يعرفه ويصدق فيه ويؤخذ عن أهل السنة، وكذلك الفقه والعبادة والزهد والجهاد والقتال إنما هو لعساكر أهل السنة، وهم الذين حفظ الله بهم الدين علمًا وعملًا، بعلمائهم وعبّادهم ومقاتليهم» ا. هـ[٢].

وقال: «وهذه الأمة ولله الحمد لا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق، فلا يمكن ملحدٌ ولا مبتدع من إفساده بغلوٍ أو انتصار على أهل الحق، ولكن يضلّ من يتبعه على ضلاله» ا. هـ[٣].

وقال: «وكان أئمة السنة والجماعة، كلما ابتدع في الدين بدعة، أنكروها ولم يقروها، ولهذا حفظ الله دين الإسلام، فلا يزال في أمة محمد طائفة هادية مهدية ظاهرة منصورة» ا. هـ[٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما أهل السنة والجماعة، فيقولون: في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هو بدعة لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها» ا. هـ[٥].

---

(١) انظر: منهاج السنة: (٤/ ١١٧ - ١١٨).
(٢) انظر: منهاج السنة: (٧/ ٤١٥).
(٣) انظر: منهاج السنة: (٦/ ٤٢٨).
(٤) انظر: الجواب الصحيح: (٤/ ٣٤٢).
(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ١٩٠).

الخصيصة الثالثة: أنهم هم أهل الكتاب والأثر علمًا وعملًا:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤].

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي:

فالطريق الشرعي: هو النظر فيما جاء به الرسول والاستدلال بأدلته والعمل بموجبها فلا بد من علم بما جاء به وعمل به لا يكفي أحدهما.

وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية، فإن الرسول بين بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه، والرسل بينوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها، كما ضرب الله في القرآن من كل مثل. وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته.

وأما الطريقان المبتدعان:

فأحدهما: طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي، فإن هذا فيه باطل كثير، وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال، فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة

والثاني: طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية، وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة. فإن هؤلاء يقولون إذا صفى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه فاضت عليه العلوم بلا تعلم، وكثير من هؤلاء تكون عبادته مبتدعة بل مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ، فيبقون في فساد من جهة العمل وفساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول. وكثير ما

يقع من هؤلاء وهؤلاء وتقدح كل طائفة في الأخرى وينتحل كل منهم اتباع الرسول، والرسول ليس ما جاء به موافقًا لما قال هؤلاء ولا هؤلاء: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وما كان رسول الله ﷺ ولا أصحابه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي، ولا على طريقة أهل البدع من أهل العبادة والتصوف، بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة. وكثير من أهل النظر يزعمون أنه بمجرد النظر يحصل العلم بلا عبادة ولا دين ولا تزكية للنفس، وكثير من أهل الإرادة يزعمون أن طريق الرياضة بمجرده تحصل المعارف بلا تعلم ولا نظر ولا تدبر للقرآن والحديث.

وكلا الفريقين غالط، بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم، لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلَّا بنظر وتدبر وفهم لما بعث الله به الرسول. ولو تعبد الإنسان ما عسى أن يتعبد لم يعرف ما خص الله به محمدًا ﷺ إن لم يعرف ذلك من جهته، وكذلك لو نظر واستدل ماذا عسى أن ينظر لم يحصل له المطلوب إلَّا بالتعلم من جهته ولا يحصل التعلم المطابق النافع إلَّا مع العمل به، وإلا فقد قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن

لَدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]» ا. هـ[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإسناد من خصائص هذه الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة» ا. هـ[٢].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعتزلة - **مثل سائر الطوائف** - فيهم من يكذب، وفيهم من يصدق، لكن ليس لهم من العناية بالحديث ومعرفته ما لأهل الحديث والسنة، فإن هؤلاء يتدينون به فيحتاجون إلى أن يعرفوا ما هو الصدق» ا. هـ[٣].

وقال: «وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة مُحَمَّد ﷺ، وجعله سلمًا إلى الدراية. فأهل الكتاب لا إسناد لهم يأثرون به المنقولات، وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات، وإنما الإسناد لمن أعظم الله عليه المنة، أهل الإسلام والسنة، يفرقون به بين الصحيح والسقيم، والمعوج والقويم. وغيرهم من أهل البدع والكفار: إنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد، وعليها من دينهم الاعتماد، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل، ولا الحالي من العاطل. وأما هذه الأمة المرحومة، وأصحاب هذه الأمة المعصومة، فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين، فظهر لهم الصدق من المين؛ كما يظهر الصبح لذي عينين..... ولهم من التعديل والتجريح، والتضعيف والتصحيح، من السعي المشكور، والعمل المبرور، ما كان من أسباب حفظ الدين، وصيانته عن إحداث المفترين» ا. هـ[٤].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهم في ذلك شبيه باليهود والنصارى، فإنه ليس لهم إسناد، والإسناد من خصائص هذه الأمة وهو من خصائص الإسلام ثم هو في الإسلام يعد من خصائص أهل السنة، فأهل السنة يعتقدون أن ما تكلم به النبي ﷺ

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية: (٥/ ٤٢٩).
(٢) انظر: منهاج السنة: (٧/ ٣٧).
(٣) انظر: منهاج السنة: (٧/ ٣٦).
(٤) انظر: الفتاوى: (١/ ٩ - ١٠).

من الوحي، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، فهم يتدينون بما صح عنه، ولا يُعرف ما صح عنه إلَّا بالبحث عن الأسانيد، والنظر في رجالها.

أما أهل البدع فلا عناية لهم بالحديث، فلذا لا يعتنون بالأسانيد؛ لأنهم خالفوا أهل السنة في مصادر التلقي، فليس للحديث هيبة في صدورهم، فلقد بنوا دينهم وعقائدهم على عقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة، أو على نقولات مكذوبة، وإذا تعارض معقولهم الفاسد مع السنة طعنوا فيها؛ ولهذا من شهير مقالتهم: إن العقيدة لا تؤخذ من أحاديث الآحاد، وإن كانت صحيحة!! وإذا تعارض العقل مع النقل قُدِّم العقل!! فهم يقدمون نتاج عقولهم على السنة؛ فلذا وقعوا في الضلال، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، بقدر بعدهم عن الوحي. وخذ مثالًا على ذلك الرافضة؛ فالقوم من أكذب الناس في النقليات، ومن أجهل الناس في العقليات، يصدقون من المنقول بما يعلم العلماء بالاضطرار أنه من الأباطيل، ويكذِّبون بالمعلوم من الاضطرار، المتواتر أعظم تواتر في الأمة جيلًا بعد جيل، ولا يميزون في نقلة العلم ورواة الأحاديث والأخبار، بين المعروف بالكذب أو الغلط أو الجهل بما ينقل، وبين العدل الحافظ الضابط المعروف بالعلم بالآثار.... كما أنهم من أجهل الناس بمعرفة النقولات والأحاديث والآثار والتمييز بين صحيحها وضعيفها، وإنما عمدتهم في المنقولات على تواريخ منقطعة الإسناد، وكثير منها من وضع المعروفين بالكذب بل وبالإلحاد، وعلماؤهم يعتمدون على نقل مثل أبي مِخنف لوط بن أبي يحيى وهشام بن محمد بن السائب وأمثالهما من المعروفين بالكذب عند أهل العلم، مع أن أمثال هؤلاء هم من أجل من يعتمدون عليه في النقل، إذ كانوا يعتمدون على من هو في غاية الجهل والافتراء ممن لا يُذكر في الكتب ولا يعرفه أهل العلم بالرجال.... وعمدتهم في الشرعيات ما نُقل عن بعض أهل البيت، وذلك النقل منه ما هو صدق ومنه ما هو كذب عمدًا أو خطأً، وليسوا أهل معرفة بصحيح المنقول وضعيفه كأهل المعرفة بالحديث....

فهم لا يعتمدون على القرآن ولا على الحديث ولا على الإجماع إلَّا لكون المعصوم منهم، ولا على القياس وإن كان واضحًا جليًّا» ا. هـ[١].

الخصيصة الرابعة: أنهم يشهدون على الخلق يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الحديد: ١٩].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا يعلم تارة بموارد النزاع بينهم وبين غيرهم، فلا تجد مسألة خولفوا فيها إلَّا وقد تبين أن الحق معهم، وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجوعهم إلى غيرهم، أو بشهادتهم على مخالفيهم بالضلال والجهل، وتارة بشهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض، وتارة بأن كل طائفة تعتصم بهم فيما خالفت فيه الأخرى، وتشهد بالضلال على كل من خالفها أعظم مما تشهد به عليهم، فأما شهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض، فهذا أمر ظاهر معلوم بالحس والتواتر لكل من سمع كلام المسلمين، لا تجد في الأمة عُظِّمَ أحدٌ تعظيمًا أعظم مما عظموا به، ولا تجد غيرهم يُعظم إلَّا بقدر ما وافقهم فيه، كما لا ينقص إلَّا بقدر ما خالفهم، حتى إنك تجد المخالفين لهم كلهم وقت الحقيقة يقر بذلك» ا. هـ[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما أهل السنة والحديث فما يعلم أحد من علمائهم، ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبرًا على

---

(١) انظر: منهاج السنة: (١/ ٨ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٩) باختصار.

(٢) انظر: الفتاوى: (٤/ ٩ - ١١).

ذلك، وإن امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين، كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وغيرهم من الأئمة، حتى كان مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: لا تغبطوا أحدًا لم يصبه في هذا الأمر بلاء.

يقول: إن الله لا بد أن يبتلي المؤمن، فإن صبر رفع درجته، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]» ا. هـ(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «فأهل الحق، هم أهل الكتاب والسنة» ا. هـ، وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «أهل السنة والحديث الصواب معهم دائمًا» ا. هـ، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «... أهل السنة لم يتفقوا على مسألة ردّية» ا. هـ(٢).

وقال: «أهل السنة يقولون: إن الحق لا يخرج عنهم، لا يقولون إنه لم يخطئ أحد منهم» ا. هـ(٣).

الخصيصة الخامسة: أنهم يدعون الخلق إلى التوحيد وينهونهم عن الشرك:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الأصل - **وهو التوحيد** - هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينًا غيره، وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

---

(١) انظر: الفتاوى: (٤/ ٥٠).
(٢) انظر: المنهاج: (٤/ ٥٩٠ - ٥٩١).
(٣) انظر: المنهاج: (٣/ ٤٢٩).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد ذكر الله ﷻ عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وفى المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت بالسَّيف بين يَدَي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رُمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»[(١)]» ا. هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: «وأصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين؛ فإنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم.

فهذا أول شرك كان في بني آدم، وكان في قوم نوح، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ [نوح:٢٣ - ٢٤]، وهذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم، ثم ذهبت هذه الأصنام لما أغرق اللّه أهل الأرض، ثم صارت إلى العرب، كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره، إن لم تكن أعيانها، وإلا فهي نظائرها.

وأما الشرك بالشيطان فهذا كثير.

فمتى لم يؤمن الخلق بأنه (لا إله إلَّا الله) بمعنى: أنه المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه، وأنه يحب أن يعبد، وأنه أمر أن يعبد وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع، من واجب ومستحب، فلا بد أن يقعوا في الشرك وغيره» ا. هـ[(٣)].

وقال أيضًا رحمه الله: «فان قيل: ما السبب في أن الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق؟ وما الحيلة في صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله؟

---

(١) رواه أحمد (٥١١٤).

(٢) انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: (١/ ٣٧).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١٤/ ٣٦٣).

فيقال: سبب هذا تحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية.

فتوحيد الربوبية أنه لا خالق إلَّا الله فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور، بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا تحقق ذلك كان سببًا لأن ينال مطلوبه ويأتيه الفرج.

وأما من تعلق قلبه بمخلوق فالمخلوق عاجز إن لم يجعله الله فاعلًا لذلك، وهذا من الشرك الذي لا يغفره الله؛ أن يرجو العبد قضاء حاجته من غير ربه. فمن أنعم الله عليه من المؤمنين بنعمة التوحيد منع حصول مطلوبه بذلك الشرك حتى يصرف قلبه إلى التوحيد، والله ينزل بعبده المؤمن من الشدة والضر ما يلجئه إلى توحيده فيدعوه مخلصًا له الدين ولا يرجو أحدًا سواه ويتعلق قلبه به وحده، فيحصل له من التوكل والإنابة وحلاوة الإيمان وذوق طعمه والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة من زوال ضره، فإن ما يحصل لأهل التوحيد لا يمكن وصفه من ذلك.

فإن الضر في الدنيا من المرض والعسر والألم وغيره يشترك في زواله وذوق لذة حلاوته المؤمن والكافر، لأنه من أمور الدنيا، بخلاف حلاوة الإيمان فلا يمكن أن يعبر عنه بمقال. ولكل امرئ من المؤمنين نصيب بقدر إيمانه، فمن تجرد توحيده لله بحيث يحب في الله ويوالي فيه ويعادي فيه ويتوكل عليه، فلا يسأل إلَّا إياه ولا يرجو غيره، بحيث يكون عند الحق خلق وعند الخلق بلا هوى، قد فنيت عنه إرادة ما سواه بإرادته ومحبة ما سواه بمحبته وخوف ما سواه بخوفه ورجاء ما سواه برجائه ودعاء ما سواه بدعائه. هو أمر لا يعرف بالذوق والوجد إلا من له منه نصيب وما من مؤمن إلَّا وله منه نصيب. وهذا هو حقيقة الإسلام وقطب رحى القرآن، به بعث الله الرسل وبه أنزل الكتب، والله المستعان وعليه التكلان» ا. هـ[1].

وقال رحمه الله تعالى: «وإذا كان التوحيد أصل صلاح الناس والإشراك

---

(١) انظر: مختصر الفتاوى المصرية: (١/ ١٣٩ - ١٤٠).

أصل فسادهم، والقسط مقرون بالتوحيد إذ التوحيد أصل العدل، وإرادة العلو مقرونة بالفساد إذ هو أصل الظلم، فهذا مع هذا وهذا مع هذا كالملزوزين في قرن. فالتوحيد وما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل» ا. هـ[١].

وقال: «فالتوحيد أصل كل خير وجماعه، والشرك أصل كل شر وجماعه، والموجبتان من مات وهو يعلم أن لا إله إلَّا الله دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار. ولهذا لما جمع ﷻ بين ما أمر به وبين ما حرمه في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]» ا. هـ[٢].

الخصيصة السادسة: أنهم يردون ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأصل الذي اتفق عليه علماء المسلمين: أن ما تنازعوا فيه وجب رده إلى الله والرسول، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]» ا. هـ[٣].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول في كل ما شجر بين الناس، في أمر دينهم ودنياهم، في أصول دينهم وفروعه، وعليهم كلهم إذا حكم بشيء أن لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما حكم ويسلموا تسليمًا» ا. هـ[٤].

وقال أيضًا: «ولم يقل أحد من علماء المسلمين: إن الحق منحصر في أربعة من علماء المسلمين كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، كما يشنّع بذلك الشيعة على أهل السنة، فيقولون: إنهم يدَّعون أن الحق منحصر فيهم، بل أهل السنة متفقون على أن ما تنازع فيه المسلمون وجب رده إلى الله والرسول،

---

(١) انظر: الفتاوى الكبرى: (١/ ٨٩).
(٢) انظر: الرد على البكري: (١/ ١٧٦ - ١٧٧).
(٣) انظر: الفتاوى الكبرى: (٣٣/ ٣٢).
(٤) انظر: كتاب الإيمان: (ص: ٤٠).

وأنه قد يكون قول ما يخالف قولَ الأربعة: من أقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وقول هؤلاء الأربعة مثل: الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم أصحُّ من قولهم» ا. هـ(١).

وقال: «فإذا تنازع المسلمون في مسألة وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، فأي القولين دل عليه الكتاب والسنة وجب اتباعه» ا. هـ(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، قال رحمه الله تعالى: «أمر الله المؤمنين عند تنازعهم برد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، فما تنازع فيه السلف والخلف وجب رده إلى الكتاب والسنة» ا. هـ(٣).

وقال: «... فليس لأحد أن يحتج لأحد الطريقين بمجرد قول أصحابه، وإن كانوا من أعظم الناس علما وديناً، لأن المنازعين لهم هم من أهل العلم والدين، وقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]، فالرد عند التنازع إنما يكون إلى كتاب الله وسنة رسوله. نعم إذا ثبت عن بعض المقبولين عند الأمة كلامٌ في مثل موارد النزاع، كان في ذلك حجة على تقدم التنازع في ذلك، وعلى دخول قوم من أهل الزهد والعبادة والسلوك في مثل هذا، ولا ريب في هذا.

لكن مجرد هذا لا يتيح للمريد الذي يريد الله، ويريد سلوك طريقه، أن يقتدي في ذلك بهم، مع ظهور النزاع بينهم وبين غيرهم، وإنكار غيرهم عليهم، بل على المريد أن يسلك الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصِّديقين والشهداء والصالحين، ويتّبع ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، فإن ذلك هو صراط الله الذي ذكره ورضي به، في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ

(١) انظر: منهاج السنة: (٢/ ٣٦٩ - ٣٧٠).
(٢) انظر: الفتاوى: (٢٠/ ١٢).
(٣) انظر: الفتاوى: (٣٣/ ١٧).

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذا أصل في أنه لا يحتج في مواضع النزاع والاشتباه بمجرد قول أحد ممن نوزع في ذلك» ا. هـ[١].

الخصيصة السابعة: أنهم يفهمون الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح ولا يخرجون عن فهمهم:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وأما أهل السنة والجماعة، فيقولون: في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم هو بدعة لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها» ا.هـ[٢].

قال الإمام الشافعي: «ما كان الكتاب أو السنة موجودين، فالعذر على من سمعهما مقطوع إلا بإتباعهما، فإن لم يكن ذلك صرنا إلى أقاويل أصحاب النبي ﷺ أو واحد منهم، ثم كان قول الأئمة: أبي بكر أو عمر أو عثمان رضي الله عنهم إذا صرنا فيه إلى التقليد، أحب إلينا، وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة، فنتبع القول الذي معه الدلالة؛ لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزمه الناس، ومن لزم قوله الناس كان أشهر ممن يفتي الرجل أو النفر، وقد يأخذ بفتياه ويدعها، وأكثر المفتين يفتون الخاصة في بيوتهم ومجالسهم، ولا يعتني العامة بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام، وقد وجدنا الأئمة ينتدبون، فيسألون

---

(١) انظر: الاستقامة: (١/ ٣٨٦).

(٢) انظر: الأم: (ص٦٦ - ٦٧).

عن العلم من الكتاب والسنة فيما أرادوا وأن يقولوا فيه، ويقولون، فيخبرون بخلاف قولهم، فيقبلون من المخبر، ولا يستنكفون عن أن يرجعوا لتقواهم الله، وفضلهم في حالاتهم، فإذا لم يوجد عن الأئمة، فأصحاب رسول الله ﷺ في الدين في موضع الأمانة، أخذنا بقولهم، وكان إتباعهم أولى بنا من إتباع من بعدهم.

ثم قال: والعلم طبقات.

الأولى: الكتاب والسنة، إذا ثبتت السنة.

الثانية: الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة.

الثالثة: أن يقول بعض أصحاب النبي ﷺ، ولا نعلم له مخالفًا منهم.

الرابعة: اختلاف أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم.

الخامسة: القياس على بعض هذه الطبقات»[1] انتهى كلامه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «هذا كله كلامه في الجديد».

ثم قال: قال البيهقي - بعد أن ذكر الكلام السابق، وفي الرسالة القديمة للشافعي بعد ذكر الصحابة وتعظيمهم -: «وهم فوقنا في كل علمٍ واجتهادٍ وورعٍ وعقلٍ أمر استدرك فيه علم أو استنبط وآراؤهم لنا أجمل وأولى بنا من رأينا ومن أدركنا ممن نرضى أو حكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا أو قول بعضهم إن تفرقوا. وكذا نقول ولم نخرج من أقوالهم كلهم.

قال البيهقي - وقال في موضع آخر-: «فإن لم يكن على القول دلالة من كتابٍ ولا سنةٍ كان قول أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أحب إليّ أن أقول به؛ من قول غيرهم إن خالفهم من قبل أنهم أهل علم، وحكام... فإن اختلفوا صرنا إلى القول الذي عليه دلالة وقلّ ما يخلو اختلافهم من ذلك. وإن اختلفوا بلا دلالة نظرنا إلى الأكثر. فإن تكافؤا نظرنا إلى أحسن أقاويلهم مخرجًا عندنا. وإن وجدنا للمفتين في زماننا أو قبله اجتماعًا في شيء لا يختلفون فيه تبعناه. وكان أحد طرق الأخبار الأربعة، وهي كتاب الله ثم سنة نبيه ﷺ، ثم القول لبعض أصحابه،ثم اجتماع الفقهاء.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ١٩٠).

فإذا نزلت نازلةٌ لم نجد فيها واحدةً من هذه الأمور فليس في الكلام في النازلة إلا اجتهاد الرأي، فهذا كلام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه بنصه» ا.هـ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونحن نشهد بالله أنه لم يرجع عنه بل كلامه في الجديد مطابق لهذا موافق له.

قال الربيع بن سليمان: «قال الشافعي: لا يكون أن تقول إلا عن أصل، أو قياس على أصل.

والأصل: كتاب أو سنة، أو قول بعض أصحاب رسول الله ﷺ، أو إجماع الناس».

قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ في مسائله: قلت لأبي عبد الله: حديث عن رسول الله مرسل برجال ثبت أحبُّ إليك، أو حديث عن الصحابة والتابعين متصل برجال ثبت؟

قال أبو عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «عن الصحابة أعجب إليّ».

ومما يدل على احتجاجه بقول الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قوله في كتابه السنة: «بل حبهم سنة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة» ا.هـ.

وقال عبدوس بن مالك العطار: «سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات، وترك الجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين...».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأئمة الإسلام كلهم على قبول قول الصحابي» ا. هـ.

الخصيصة الثامنة: إن معيار ولاءهم للخلق وميزانهم في ذلك هو التوحيد والسنة:

قال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وولاية الله موافقته، بأن تحب ما يحب، وتبغض ما يبغض، وتكره ما يكره، وتسخط ما يسخط، وتوالي من يوالي، وتعادي من يعادي، فإذا كنت تحب وترضى ما يكرهه ويسخطه، كنت عدوه لا وليه، وكان كل ذم نال من رضا ما أسخط الله، قد نالك.

فتدبر هذا فإنه ينبه على أصل عظيم، ضل فيه من طوائف النساك، والصوفية، والعباد، والعامة، من لا يحصيهم إلَّا الله» ا. هـ(١).

قال ابن القيم رحمه الله: ««والخليلان» هم أكمل خاصة الخاصة توحيدًا، ولا يجوز أن يكون في الأمة مَنْ هو أكمل توحيدًا من نبي من الأنبياء، فضلًا عن الرسل، فضلًا عن أولي العزم، فضلًا عن الخليلين.

وكمال هذا التوحيد هو أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلًا، بل يبقى العبد مواليًا لربه في كل شيء: يحب من أحب وما أحب، ويبغض من أبغض وما أبغض، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما نهى عنه» ا. هـ(٢).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه؛ ومقدار حبه وبغضه: هل هو موافق لأمر الله ورسوله؟ وهو هدى الله الذي أنزله على رسوله؛ بحيث يكون مأمورًا بذلك الحب والبغض؛ لا يكون متقدمًا فيه بين يدي الله ورسوله؛ فإنه قد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله، ومجرد الحب والبغض هوى؛ لكن المحرم اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [ص: ٢٦]، فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله، وهو هداه الذي بعث به رسوله؛

---

(١) انظر: الفتاوى الكبرى: (٢/ ٤٠٤).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٤٨٥).

وهو السبيل إليه» ا. هـ[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «فحمد الرجال عند الله ورسوله وعباده المؤمنين بحسب ما وافقوا فيه دين الله وسنة رسوله وشرعه من جميع الأصناف؛ إذ الحمد إنما يكون على الحسنات، والحسنات: هي ما وافق طاعة الله ورسوله، من التصديق بخبر الله والطاعة لأمره، وهذا هو السنة، فالخير كله - **باتفاق الأمة** - هو فيما جاء به الرسول ﷺ، وكذلك ما يذم من يذم من المنحرفين عن السنة والشريعة وطاعة الله ورسوله إلَّا بمخالفة ذلك. ومن تكلم فيه من العلماء والأمراء وغيرهم إنما تكلم فيه أهل الإيمان بمخالفته السنة والشريعة» ا. هـ[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والولي: مشتق من الولاء وهو القرب، كما أن العدو من العدو وهو البعد، فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته» ا. هـ[٣].

وقال: «أولياء الله: هم المؤمنون المتقون، سواء سمي أحدهم فقيرًا أو صوفيًّا أو فقيهًا أو عالمًا أو تاجرًا أو جنديًّا أو صانعًا أو أميرًا أو حاكمًا أو غير ذلك» ا. هـ[٤].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالأسماء التي تعلق بها الشريعة المدح والذم والحب والبغض والموالاة والمعاداة والطاعة والمعصية والبر والفجور والعدالة والفسق والإيمان والكفر هي الأسماء الموجودة في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، فأما ما سوى ذلك من الأسماء فإنما تذكر للتعريف - **كأسماء الشعوب والقبائل** - فلا يجوز تعليق الأحكام الشرعية بها، بل ذلك كله من فعل أهل

---

(١) انظر: الفتاوى: (٢٨/ ١٣٣ - ١٣٤).
(٢) انظر: الفتاوى: (٤/ ١٤).
(٣) انظر: الفتاوى: (١١/ ٦٢).
(٤) انظر: الفتاوى: (١١/ ٢٢).

الأهواء والتفرق والاختلاف الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا.

كحال من يعلق الموالاة والمعاداة بأسماء القبائل، أو البلدان، أو المذاهب المتبوعة في الإسلام كالحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، والمشايخ ونحوهم» ا. هـ[1].

وقال أيضًا: «الطائفة إنما تتميز بذكر قولها، أو بذكر رئيسها: ولهذا كان المؤمنون يتميزون بكتاب الله وسنة رسوله، فالقول الذي يدعون إليه هو كتاب الله، والإمام الذي يوجبون اتباعه هو رسول الله، وعلى هذا بني الإيمان، وبذلك وجب الموالاة والمعاداة... فالواجب أن يكون الرجل مع المؤمنين باطنًا وظاهرًا.

وكل قول أو عمل تنازع الناس فيه ردوه إلى الكتاب والسنة، ولا يجوز وضع طائفة بعينها يوالي من والته ويعادي من عادته؛ لا أخص من المؤمنين، لو كانت أسماؤهم للتعريف المحض كالمالكية، والشافعية، والحنبلية، أو غير ذلك - **ولا أعم من ذلك** - ولا يجوز تعليق الحب والبغض والموالاة والمعاداة إلَّا بالأسماء الشرعية، وأما أسماء التعريف كالأنساب والقبائل فيجوز أن يعرف بها ما دلت عليه، ثم ينظر في موافقته للشرع ومخالفته له» ا. هـ[2].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك التفريق بين الأمة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله: مثل أن يقال للرجل: أنت شكيلي، أو قرفندي، فإن هذه أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا في الآثار المعروفة عن سلف الأمة لا شكيلي ولا قرفندي.

والواجب على المسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول: لا أنا شكيلي ولا قرفندي؛ بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله.

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية: (١/ ١٠٩).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية: (١/ ٢٤٢ - ٢٤٤).

وقد روينا عن معاوية بن أبي سفيان: أنه سأله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال: «أنت على ملة علي، أو ملة عثمان؟ فقال: لست على ملة علي، ولا على ملة عثمان، بل أنا على ملة رسول الله»، وكذلك كان كل من السلف يقولون: كل هذه الأهواء في النار، ويقول أحدهم: ما أبالي أي النعمتين أعظم؟ على أن هداني الله للإسلام، أو أن جنبني هذه الأهواء، والله تعالى قد سمانا في القرآن: المسلمين، المؤمنين، عباد الله، فلا نعدل عن الأسماء التي سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم - **وسموها هم وآباؤهم** - ما أنزل الله بها من سلطان، بل الأسماء التي يسوغ التسمي بها مثل انتساب الناس إلى إمام كالحنفي والمالكي، والشافعي، والحنبلي أو إلى شيخ، كالقادري، والعدوي ونحوهم، أو مثل الانتساب إلى القبائل: كالقيسي واليماني، وإلى الأمصار كالشامي والعراقي والمصري، فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها، ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان» ا. هـ[1].

وإذا كان التعصب لا يجوز فيما يسوغ التسمي به فـ: «كيف يجوز التفريق بين الأمة بأسماء مبتدعة، لا أصل لها في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ» ا. هـ[2].

الخصيصة التاسعة: يعاملون مخالفيهم بالعدل والإنصاف:

قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالبغي مذموم مطلقًا، سواء كان في أن يلزم الإنسان الناس بما لا يلزمهم، ويذمهم على تركه، أو بأن يذمهم على ما هم معذورون فيه، والله يغفر لهم خطأهم فيه، فمن ذم الناس وعاقبهم على ما لم يذمهم الله تعالى ويعاقبهم عليه فقد بغى عليهم، لا سيما إذا كان ذلك

---

(١) انظر: الفتاوى: (٣/ ٤١٥ - ٤١٦).

(٢) انظر: الفتاوى: (٣/ ٤٢١).

لأجل هواه» ا. هـ[١].

وقال: «وقد يقول كثير من علماء المسلمين: أهل العلم والدين من الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين كالأربعة وغيرهم أقوالًا باجتهادهم؛ فهذه يسوغ القول بها، ولا يجب على كل مسلم أن يلزم إلَّا قول رسول الله ﷺ؛ فهذا شرع دخل فيه التأويل والاجتهاد، وقد يكون في نفس الأمر موافقًا للشرع المنزل فيكون لصاحبه أجران، وقد لا يكون موافقًا له؛ لكن لا يكلف الله نفسًا إلَّا وسعها؛ فإذا اتقى العبد الله ما استطاع آجره الله على ذلك، وغفر له خطأه. ومن كان هكذا لم يكن لأحد أن يذمه ولا يعيبه ولا يعاقبه، ولكن إذا عرف الحق بخلاف قوله لم يجز ترك الحق الذي بعث الله به رسوله لقول أحد من الخلق، وذلك هو المشرع المنزل من عند الله، وهو الكتاب والسنة وهو دين الله... » ا. هـ[٢].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من الخطأ في الدين ما لا يكفر مخالفه؛ بل ولا يفسق؛ بل ولا يأثم؛ مثل الخطأ في الفروع العملية؛ وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن المخطئ فيها آثم، وبعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب، فهذان القولان شاذَّان» ا. هـ[٣].

وقال: «الرجل العظيم في العلم والدين، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة، أهل البيت وغيرهم، قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقرونًا بالظن، ونوع من الهوى الخفي، فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتِّباعه فيه، وإن كان من أولياء الله المتقين.

ومثل هذا إذا وقع يصير فتنة لطائفتين: طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك

---

(١) انظر: درء التعارض: (٨/ ٤٠٨).
(٢) انظر: الفتاوى: (٣٥/ ٣٦٦ - ٣٦٧).
(٣) انظر: الفتاوى: (١٢/ ٤٩٤).

الفعل واتباعه عليه، وطائفة تذمّه فتجعل ذلك قادحًا في ولايته وتقواه، بل في برّه وكونه من أهل الجنة، بل في إيمانه حتى تخرجه عن الإيمان، وكلا هذين الطرفين فاسد، والخوارج والروافض وغيرهم من ذوي الأهواء دخل عليهم الداخل من هذا، ومن سلك طريق الاعتدال عظَّم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه، وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق، ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات فيُحمد ويُذم، ويُثاب ويُعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه. هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم» ا. هـ[١].

وقال: «وثبت في «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال لأصحابه عام الخندق: «لا يصلين أحد العصر إلَّا في بني قريظة»؛ فأدركتهم صلاة العصر في الطريق، فقال بعضهم: لم يُرد منا تفويت الصلاة، فصلّوا في الطريق. وقال بعضهم: لا نصلي إلَّا في بني قريظة، فصلّوا العصر بعد ما غربت الشمس. فما عنَّف واحدة من الطائفتين[٢].

فهذا دليل على أن المجتهدين يتنازعون في فهم كلام رسول الله ﷺ، وليس كل واحد منهم آثمًا» ا. هـ[٣].

وقال رحمه الله: «ومما يجب أن يعلم أن الذي يريد أن ينكر على الناس ليس له أن ينكر إلَّا بحجة وبيان؛ إذ ليس لأحد أن يلزم أحدًا بشيء، ولا يحظر على أحد شيئًا بلا حجة خاصة؛ إلَّا رسول الله ﷺ المبلغ عن الله، الذي أوجب على الخلق طاعته فيما أدركته عقولهم، وما لم تدركه، وخبره مصدق فيما علمناه، وما لم نعلمه، وأما غيره إذا قال: هذا صواب أو خطأ، فإن لم يبين ذلك بما يجب به اتباعه، فأول درجات الإنكار أن يكون الْمُنكِر عالمًا بما ينكره، وما يقدر

---

(١) انظر: منهاج السنة: (٤/ ٥٤٣ - ٥٤٤).
(٢) رواه البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠).
(٣) انظر: منهاج السنة: (٣/ ٤١١ - ٤١٢).

الناس عليه، فليس لأحد من خلق الله كائنًا من كان أن يُبطل قولًا أو يُحرِّم فعلًا إلَّا بسلطان الحجة، وإلا كان ممن قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: ٥٦].

وقال فيه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر: ٣٥]» ا. هـ[١].

بيان حال المخالفين[٢]:

فإن بيان حال المخالف واجب:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «بيان حال من يغلط في الحديث والرواية، ومن يغلط في الرأي والفتيا، ومن يغلط في الزهد والعبادة؛ وإن كان المخطئ المجتهد مغفورًا له خطؤه، وهو مأجور على اجتهاده، فبيان القول والعمل الذي دل عليه الكتاب والسنة واجب؛ وإن كان في ذلك مخالفة لقوله وعمله، ومن علم منه الاجتهاد السائغ فلا يجوز أن يذكر على وجه الذم والتأثيم له؛ فإن الله غفر له خطأه؛ بل يجب لما فيه من الإيمان والتقوى موالاته ومحبته، والقيام بما أوجب الله من حقوقه من ثناء ودعاء وغير ذلك» ا. هـ[٣].

وقال أيضًا: «وقد فرض الله على ولاة أمر المسلمين اتباع الشرع الذي هو الكتاب والسنة، وإذا تنازع بعض المسلمين في شيء من مسائل الدين ولو كان المنازع من آحاد طلبة العلم لم يكن لولاة الأمور أن يلزموه باتباع حكم حاكم؛ بل عليهم أن يبينوا له الحق كما يبين الحق للجاهل المتعلم، فإن تبين له الحق الذي بعث الله به رسوله وظهر وعانده بعد هذا استحق العقاب، وأما

---

(١) انظر: الفتاوى: (٣/ ٢٤٥).

(٢) طالع غير مأمور رسالتي: «المنهج القويم في بيان طريقة السلف في الجرح والتقييم»، وهي مطبوعة بفضل الله تعالى.

(٣) انظر: الفتاوى: (٢٨/ ٢٣٣ - ٢٣٤).

من يقول: إن الذي قلته هو قولي، أو قول طائفة من العلماء المسلمين؛ وقد قلته اجتهادًا، أو تقليدًا: فهذا باتفاق المسلمين لا تجوز عقوبته، ولو كان قد أخطأ خطأ مخالفًا للكتاب والسنة، ولو عوقب هذا لعوقب جميع المسلمين، فإنه ما منهم من أحد إلَّا وله أقوال اجتهد فيها أو قلد فيها وهو مخطئ فيها؛ فلو عاقب الله المخطئ لعاقب جميع الخلق...، فالمفتي والجندي والعامي إذا تكلموا بالشيء بحسب اجتهادهم اجتهادًا أو تقليدًا قاصدين لاتباع الرسول بمبلغ علمهم لا يستحقون العقوبة بإجماع المسلمين، وإن كانوا قد أخطئوا خطأ مجمعًا عليه، وإذا قالوا: إنا قلنا الحق، واحتجوا بالأدلة الشرعية: لم يكن لأحد من الحكام أن يلزمهم بمجرد قوله، ولا يحكم بأن الذي قاله هو الحق دون قولهم، بل يحكم بينه وبينهم الكتاب والسنة، والحق الذي بعث الله به رسوله لا يغطى بل يظهر، فإن ظهر رجع الجميع إليه، وإن لم يظهر سكت هذا عن هذا وسكت هذا عن هذا؛ كالمسائل التي تقع يتنازع فيها أهل المذاهب، لا يقول أحد إنه يجب على صاحب مذهب أن يتبع مذهب غيره لكونه حاكمًا، فإن هذا ينقلب، فقد يصير الآخر حاكمًا فيحكم بأن قوله هو الصواب، فهذا لا يمكن أن يكون كل واحد من القولين المتضادين يلزم جميع المسلمين اتباعه، بخلاف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من عند الله؛ حق وهدى وبيان، ليس فيه خطأ قط، ولا اختلاف ولا تناقض، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وعلى ولاة الأمر أن يمنعوهم من التظالم، فإذا تعدى بعضهم على بعض منعوهم العدوان؛ وهم قد أُلزموا بمنع ظلم أهل الذمة؛ وأن يكون اليهودي والنصراني في بلادهم إذا قام بالشروط المشروطة عليهم، لا يلزمه أحد بترك دينه؛ مع العلم بأن دينه يوجب العذاب، فكيف يسوغ لولاة الأمور أن يُمكِّنوا طوائف المسلمين من اعتداء بعضهم على بعض؛ وحكم بعضهم على بعض بقوله ومذهبه، وهذا مما يوجب تغير الدول وانتقاضها؛ فإنه لا صلاح للعباد على مثل هذا. وهذا إذا كان الحكّام قد حكموا في مسألة فيها اجتهاد ونزاع معروف، فإذا كان القول

الذي قد حكموا به لم يقل به أحد من أئمة المسلمين، ولا هو مذهب أئمتهم الذين ينتسبون إليهم؛ ولا قاله أحد من الصحابة والتابعين؛ ولا فيه آية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل قولهم يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأئمة، فكيف يحل مع هذا أن يُلزم علماء المسلمين باتباع هذا القول، وينفذ فيه هذا الحكم المخالف للكتاب والسنة والإجماع، وأن يقال: القول الذي دل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف لا يقال، ولا يفتى به، بل يعاقب ويؤذى من أفتى به، ومن تكلم به، وغيرهم، ويؤذى المسلمون في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لكونهم اتبعوا ما علموه من دين الإسلام وإن كان قد خفي على غيرهم، وهم يَعذرون من خفي عليه ذلك ولا يُلزمون باتباعهم، ولا يعتدون عليه، فكيف يعان من لا يعرف الحق بل يحكم بالجهل والظلم، ويلزم من عرف ما عرفه من شريعة الرسول أن يترك ما علمه من شرع الرسول ﷺ لأجل هذا؟!! لا ريب أن هذا أمر عظيم عند الله تعالى وعند ملائكته وأنبيائه وعباده، والله لا يغفل عن مثل هذا». ا.هـ[1].

قال رحمه الله: «الخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل: **الخبرية والعلمية**.

كمن اعتقد ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما يعارضه ويبين المراد ولم يعرفه.

مثل من اعتقد أن الذبيح إسحاق، لحديث اعتقد ثبوته، أو اعتقد أن الله لا يرى؛ لقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، كما احتجت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي ﷺ، وإنما يدلان بطريق العموم، وكما نقل عن بعض التابعين أن الله لا يرى، فسروا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، بأنها تنتظر ثواب ربها، كما نقل عن مجاهد وأبي صالح.

---

(١) انظر: الفتاوى: (٣٥/ ٣٧٨ - ٣٨١).

أو من أعتقد أن الميت لا يعذب ببكاء الحي؛ لاعتقاده أن قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] يدل على ذلك؛ وأن ذلك يقدم على رواية الراوي لأن السمع يغلط، كما اعتقد ذلك طائفة من السلف والخلف.

أو اعتقد أن الميت لا يسمع خطاب الحي؛ لاعتقاده أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] يدل على ذلك.

أو اعتقد أن الله لا يعجب، كما اعتقد ذلك شريح؛ لاعتقاده أن العجب إنما يكون من جهل السبب والله منَزه عن الجهل، أو اعتقد أن عليًّا أفضل الصحابة؛ لاعتقاده صحة حديث الطير؛ وأن النبي ﷺ قال: «اللهم ائتني بأحب الخلق إليك؛ يأكل معي من هذا الطائر».

أو اعتقد أن من جس للعدو وعلمهم بغزو النبي ﷺ فهو منافق؛ كما اعتقد ذلك عمر في حاطب وقال: «دعني أضرب عنق هذا المنافق».

أو اعتقد أن من غضب لبعض المنافقين غضبة فهو منافق؛ كما اعتقد ذلك أسيد بن حضير في سعد بن عبادة وقال: «إنك منافق! تجادل عن المنافقين».

أو اعتقد أن بعض الكلمات أو الآيات أنها ليست من القرآن؛ لأن ذلك لم يثبت عنده بالنقل الثابت، كما نقل عن غير واحد من السلف أنهم أنكروا ألفاظًا من القرآن، كإنكار بعضهم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: إنما هي (ووصى ربك)، وإنكار بعضهم قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقال: إنما هو ميثاق بني إسرائيل، وكذلك هي في قراءة عبد الله، وإنكار بعضهم: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الرعد: ٣١]، إنما هي (أولم يتبين الذين آمنوا)، وكما أنكر عمر على هشام بن الحكم، لما رآه يقرأ سورة الفرقان على غير ما قرأها، وكما أنكر طائفة من السلف على بعض القراء بحروف لم يعرفوها، حتى جمعهم عثمان على المصحف الإمام.

وكما أنكر طائفة من السلف والخلف أن الله يريد المعاصي؛ لاعتقادهم أن معناه أن الله يحب ذلك ويرضاه ويأمر به، وأنكر طائفة من السلف والخلف

أن الله يريد المعاصي؛ لكونهم ظنوا أن الإرادة لا تكون إلَّا بمعنى المشيئة لخلقها، وقد علموا أن الله خالق كل شيء؛ وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والقرآن قد جاء بلفظ الإرادة بهذا المعنى وبهذا المعنى، لكن كل طائفة عرفت أحد المعنيين وأنكرت الآخر.

وكالذي قال لأهله: «إذا أنا مت فأحرقوني؛ ثم ذروني في اليم فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين»(١).

وكما قد ذكره طائفة من السلف في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥]، وفي قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، وكالصحابة الذين سألوا النبي ﷺ: «هل نرى ربنا يوم القيامة؟»، فلم يكونوا يعلمون أنهم يرونه؛ وكثير من الناس لا يعلم ذلك.

- إما لأنه لم تبلغه الأحاديث.

- وإما لأنه ظن أنه كذب وغلط» ا. هـ(٢).

وقال: «وليس من شرط ولي الله أن يكون معصومًا لا يغلط ولا يخطئ؛ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه...» ا. هـ(٣).

التفريق بين مراتب المخالفين:

قال رحمه الله: «أبو ذر فيه من العلم والدين والمعرفة بالحديث والسنة وانتصابه لرواية البخاري عن شيوخه الثلاثة وغير ذلك من المحاسن والفضائل ما هو معروف به، وكان قد قدم إلى بغداد من هراة فأخذ طريقة ابن الباقلاني وحملها إلى الحرم. فتكلم فيه وفي طريقته من تكلم كأبي نصر السجزي وأبي

---

(١) رواه أحمد (٢٣٢٥٣)، والبخاري (٣٤٨١).

(٢) انظر: الفتاوى: (٢٠/ ٣٣ - ٣٦).

(٣) انظر: كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: (١/ ٢٣).

القاسم سعد بن علي الزنجاني وأمثالهما من أكابر أهل العلم والدين لما ليس هذا موضعه. وهو ممن يرجح طريقة الصبغي والثقفي على طريقة ابن خزيمة وأمثاله من أهل الحديث، وأهل المغرب كانوا يحجون فيجتمعون به ويأخذون عنه الحديث وهذه الطريقة ويدلهم على أصلها، فيرحل منهم من يرحل إلى المشرق كما رحل أبو الوليد الباجي فأخذ طريقة أبو جعفر السمناني الحنفي صاحب القاضي أبي بكر، ورحل بعده القاضي أبو بكر بن العربي فأخذ طريقة أبي المعالي في الإرشاد. ثم إنه ما من هؤلاء إلَّا من له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة، وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكر المسلمون من أهل العلم والدين، وصار الناس بسبب ذلك؛ منهم من يعظمهم؛ لما لهم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم؛ لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوساطها، وهذا ليس مخصوصًا بهؤلاء، بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين، والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات، ويتجاوز لهم عن السيئات: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول ﷺ، وأخطأ في بعض ذلك فالله يغفر له خطأه، تحقيقًا للدعاء الذي استجابه الله لنبيه وللمؤمنين حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومن اتبع ظنه وهواه فأخذ يشنِّع على من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صوابًا بعد اجتهاده، وهو من البدع المخالفة للسنة، فإنه يلزمه نظير ذلك أو أعظم فيمن يعظمه هو من أصحابه، فقل من يسلم من مثل ذلك في المتأخرين، لكثرة الاشتباه والاضطراب، وبُعد الناس عن نور النبوة وشمس الرسالة الذي

به يحصل الهدى والصواب، ويزول به عن القلوب الشك والارتياب» ا. هـ[١].

وقال أيضًا: «من كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن والإيمان مثلًا، أو لتعديه حدود الله بسلوك السبيل التي نُهي عنها، أو لاتباع هواه بغير هدى من الله، فهو الظالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد بخلاف المجتهد في طاعة الله ورسوله باطنًا وظاهرًا، الذي يطلب الحق باجتهاده كما أمره الله ورسوله فهذا مغفور له خطؤه» ا. هـ[٢].

فرق بين مخالفة العالم في الأمور الجلية والأمور الخفية:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكل ما خالف حكم الله ورسوله، فأما شرع منسوخ وإما شرع مبدل ما شرعه الله؛ بل شرعه شارع بغير إذن من الله، كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، لكن هذا وهذا قد يقعان في خفي الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابها استفرغوا فيه وسعهم في طلب الحق، ويكون لهم من الصواب والاتباع ما يغمر ذلك، كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك؛ ولم يكن منهم مثل هذا في جلي الأمور وجليلها؛ لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهرًا بينهم فلا يخالفه إلَّا من يخالف الرسول، وهم معتصمون بحبل الله يُحَكِّمون الرسول فيما شجر بينهم، لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله، فضلًا عن تعمد مخالفة الله ورسوله، فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهرًا لهم، ودق على كثير من الناس ما كان جليًّا لهم، فكثر من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف، وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين يغفر الله لهم خطاياهم، ويثيبهم على اجتهادهم. وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلًا يعملها

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل: (٢/ ١٠٢ - ١٠٣).

(٢) انظر درء التعارض: (١/ ٥٩).

في ذلك الزمان؛ لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك، وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك، لكن تضعيف الأجر لهم في أمور لم يضعف للصحابة لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة، ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة؛ فإن الذي سبق إليه الصحابة من الإيمان والجهاد، ومعاداة أهل الأرض في موالاة الرسول وتصديقه، وطاعته فيما يخبر به ويوجبه قبل أن تنتشر دعوته وتظهر كلمته، وتكثر أعوانه وأنصاره وتنتشر دلائل نبوته، بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين، وإنفاق المؤمنين أموالهم في سبيل الله ابتغاء وجهه في مثل تلك الحال أمر ما بقي تحصيل مثله لأحد، كما في الصحيحين عنه ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[(١)] ا. هـ[(٢)].

وقال: «... ثم ذلك المُحرم للحلال؛ والمحُلل للحرام، إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع؛ فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه، ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبع في ذلك هواه، ونصره باللسان واليد، مع علمه بأنه مخالف للرسول، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه» ا. هـ[(٣)].

الخصيصة العاشرة: أنهم وسط بين الفرق كما أن المسلمين وسط بين الملل الأخرى:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ

(١) رواه أحمد (١١٥١٦)، والبخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).
(٢) انظر: الفتاوى: (١٣/ ٦٤ - ٦٦).
(٣) انظر: الفتاوى: (٧/ ٧١).

ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وكذلك أهل السنة في الإسلام متوسطون في جميع الأمور، فهم في علي وسط بين الخوارج والروافض، وكذلك في عثمان وسط بين المروانية وبين الزيدية، وكذلك في سائر الصحابة وسط بين الغلاة فيهم والطاعنين عليهم، وهم في الوعيد وسط بين الخوارج والمعتزلة وبين المرجئة، وهم في القدر وسط بين القدرية من المعتزلة ونحوهم، وبين القدرية المجبرة من الجهمية ونحوهم، وهم في الصفات وسط بين المعطلة وبين الممثلة» ا. هـ[1].

وقال رحمه الله: «وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ دِينَ اللهِ وَسَطٌ بَيْنَ الْغَالِي فِيهِ، وَالْجَافِي عَنْهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى مَا أَمَرَ عِبَادَهُ بِأَمْرٍ إلَّا اعْتَرَضَ الشَّيْطَانُ فِيهِ بِأَمْرَيْنِ لَا يُبَالِي بِأَيِّهِمَا ظَفِرَ: إمَّا إفْرَاطٌ فِيهِ وَإِمَّا تَفْرِيطٌ فِيهِ. وَإِذَا كَانَ الْإِسْلَامُ الَّذِي هُوَ دِينُ اللهِ لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ قَدْ اعْتَرَضَ الشَّيْطَانُ كَثِيرًا مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَيْهِ؛ حَتَّى أَخْرَجَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ شَرَائِعِهِ؛ بَلْ أَخْرَجَ طَوَائِفَ مِنْ أَعْبَدْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَوْرَعِهَا عَنْهُ حَتَّى مَرَقُوا مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمْيَةِ.

وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقِتَالِ الْمَارِقِينَ مِنْهُ؛ فَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا مِنْ رِوَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَسَهْلِ بنِ حُنَيْفٍ وَأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهم وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ الْخَوَارِجَ فَقَالَ: «يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمْيَةِ أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ أَوْ فَقَاتِلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية: (٥/ ١٧٢).

لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»[(١)]، وَفِي رِوَايَةٍ: «شَرُّ قَتِيلٍ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتِيلٍ مَنْ قَتَلُوهُ»[(٢)]، وَفِي رِوَايَةٍ: «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَهُمْ مَا زُوِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَنَكَلُوا عَنْ الْعَمَلِ»[(٣)].

وَهَؤُلَاءِ لَمَّا خَرَجُوا فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَاتَلَهُمْ هُوَ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَحْضِيضِهِ عَلَى قِتَالِهِمْ، وَاتَّفَقَ عَلَى قِتَالِهِمْ جَمِيعُ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ. وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ فَارَقَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَخَرَجَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشَرِيعَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ وَالْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ.

وَلِهَذَا قَاتَلَ الْمُسْلِمُونَ أَيْضًا «الرَّافِضَةَ» الَّذِينَ هُمْ شَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَهُمْ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ جَمَاهِيرَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَمَنْ سِوَاهُمْ كَافِرٌ، وَيُكَفِّرُونَ مَنْ يَقُولُ: إنَّ اللهَ يُرَى فِي الْآخِرَةِ، أَوْ يُؤْمِنُ بِصِفَاتِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ وَمَشِيئَتِهِ الشَّامِلَةِ، وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِي بِدَعِهِمْ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا.

فَإِنَّهُمْ يَمْسَحُونَ الْقَدَمَيْنِ وَلَا يَمْسَحُونَ عَلَى الْخُفِّ، وَيُؤَخِّرُونَ الْفُطُورَ وَالصَّلَاةَ إلَى طُلُوعِ النَّجْمِ، وَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، وَيَقْنُتُونَ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَيُحَرِّمُونَ الْفُقَّاعَ وَذَبَائِحَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَذَبَائِحَ مَنْ خَالَفَهُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ عِنْدَهُمْ كُفَّارٌ، وَيَقُولُونَ عَلَى الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم أَقْوَالًا عَظِيمَةً لَا حَاجَةَ إلَى ذِكْرِهَا هُنَا، إلَى أَشْيَاءَ أُخَرَ، فَقَاتَلَهُمْ الْمُسْلِمُونَ بِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

فَإِذَا كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ قَدْ انْتَسَبَ إلَى الْإِسْلَامِ مَنْ مَرَقَ مِنْهُ مَعَ عِبَادَتِهِ الْعَظِيمَةِ؛ حَتَّى أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقِتَالِهِمْ؛ فَيُعْلَمُ أَنَّ الْمُنْتَسِبَ إلَى الْإِسْلَامِ أَوْ السُّنَّةِ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ قَدْ يَمْرُقُ أَيْضًا مِنْ الْإِسْلَامِ

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٠ و ١١٤٤)، ومسلم (١٠٦٤ و ١٠٦٣).

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٠٨)، والترمذي (٣٠٠٠).

(٣) رواه أبو داود (٤٧٦٨) بلفظ: قضي لهم.

وَالسُّنَّةِ حَتَّى يَدَّعِيَ السُّنَّةَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا بَلْ قَدْ مَرَقَ مِنْهَا» ا. هـ[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما أمر الله بأمر إلَّا وللشيطان فيه نزغتان:

- إما إلى تفريط وإضاعة.

- وإما إلى إفراط وغلو.

ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه كالوادي بين جبلين والهدى بين ضلالتين والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له فالغالي فيه مضيع له؛ هذا بتقصيره عن الحد وهذا بتجاوزه الحد، وقد نهى الله عن الغلو بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

والغلو نوعان:

- **نوع يخرجه عن كونه مطيعًا:** كمن زاد في الصلاة ركعة أو صام الدهر مع أيام النهي أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمى بها في المنجنيق أو سعى بين الصفا والمروة عشرًا، أو نحو ذلك عمدًا.

- **وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار:** كقيام الليل كله، وسرد الصيام الدهر أجمع بدون صوم أيام النهي، والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلَّا غلبه، فسددوا وقاربوا ويسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[٢]. ا. هـ[٣].

وأختم هذه الخصيصة بكلام لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فقد جمع فيه وسطية أهل الإسلام في جميع أمور الدين والدنيا، وكلامه هذا يصلح أن يكون متن يشرح، ولعل الله تعالى يبارك في العُمر وأقوم بشرح وبيان ما فيه من علم،

---

(١) انظر: الفتاوى: (٣/ ٣٨١ - ٣٨٣).

(٢) رواه البخاري (٣٩).

(٣) انظر مدارج السالكين: (٢/ ٤٩٦).

أسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق والسداد.

قال رحمه الله تعالى: «**فصل**

ومن كيده - **أي الشيطان** - العجيب: أنه يشام النفس حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها:

- قوة الإقدام والشجاعة.

- أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة.

فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام، أخذ في تثبيطه، وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به، وثقله عليه، فهون عليه تركه حتى يتركه جملة، أو يقصر فيه ويتهاون به.

وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة، أخذ يقلل عنده المأمور به ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة.

فيقصر بالأول، ويتجاوز الثاني، كما قال بعض السلف: «ما أمر الله تعالى بأمر إلَّا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو ولا يبالي بأيهما ظفر».

وقد اقتطع أكثر الناس إلَّا أقل القليل في هذين الواديين:

- وادي التقصير.

- ووادي المجاوزة والتعدي.

والقليل منهم جدًّا الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

- فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس.

- وقوم قصر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتى

أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كلًّا على الناس مستشرفين إلى ما بأيديهم.

- وقوم قصر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأضروا بقلوبهم وأبدانهم.

- وكذلك قصر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم.

- وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلم العلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

- وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفور أو شاة ليأكله، وتجاوز بآخرين حتى جرأهم على الدماء المعصومة.

- وكذلك قصر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به.

- وقصر بقوم حتى أطعمهم من العشب ونبات البرية دون غذاء بني آدم، وتجاوز بآخرين حتى أطعمهم الحرام الخالص.

- وقصر بقوم حتى زين لهم ترك سنة رسول الله ﷺ من النكاح فرغبوا عنه بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا، ما وصلوا إليه من الحرام.

- وقصر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح وأعرضوا عنهم ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله تعالى.

- وكذلك قصر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حللوه والحرام ما حرموه، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة.

- وقصر بقوم حتى قالوا: إن الله ﷻ لا يقدر على أفعال عباده ولا شاءها منهم ولكنهم يعملونها بدون مشيئة الله تعالى وقدرته، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: إنهم لا يفعلون شيئًا البتة، وإنما الله ﷻ هو فاعل تلك الأفعال حقيقة فهي نفس فعله لا أفعالهم، والعبيد ليس لهم قدرة ولا فعل البتة.

- وقصر بقوم حتى قالوا: إن رب العالمين ليس داخلًا في خلقه ولا بائنًا عنهم ولا هو فوقهم ولا تحتهم ولا خلفهم ولا أمامهم ولا عن أيمانهم ولا عن شمائلهم، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: هو في كل مكان بذاته كالهواء الذي هو داخل في كل مكان.

- وقصر بقوم حتى قالوا: لم يتكلم الرب ﷻ بكلمة واحدة البتة، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: لم يزل أزلًا وأبدًا قائلًا: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾، ويقول لموسى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، فلا يزال هذا الخطاب قائمًا به ومسموعًا منه كقيام صفة الحياة به.

- وقصر بقوم حتى قالوا: إن الله ﷻ لا يشفع أحدًا في أحد البتة ولا يرحم أحدًا بشفاعة أحد، وتجاوز بآخرين حتى زعموا أن المخلوق يشفع عنده بغير إذنه كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم.

- وقصر بقوم حتى قالوا: إيمان أفسق الناس وأظلمهم كإيمان جبريل وميكائيل فضلًا عن أبي بكر وعمر، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة.

- وقصر بقوم حتى نفوا حقائق أسماء الرب تعالى وصفاته وعطلوه منها، وتجاوز بآخرين حتى شبهوه بخلقه ومثلوه بهم، وقصر بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله ﷺ وقاتلوهم واستحلوا حرمتهم، وتجاوز بقوم حتى ادعوا فيهم خصائص النبوة: من العصمة وغيرها، وربما ادعوا فيهم الإلهية.

- وكذلك قصر باليهود في المسيح حتى كذبوه ورموه وأمه بما برأهما الله تعالى منه، وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله وجعلوه إلهًا يعبد مع الله.

- وقصر بقوم حتى نفوا الأسباب والقوى والطبائع والغرائز، وتجاوز بآخرين حتى جعلوها أمرًا لازمًا لا يمكن تغييره ولا تبديله، وربما جعلها بعضهم مستقلة بالتأثير.

- وقصر بقوم حتى تعبدوا بالنجاسات- وهم النصارى وأشباههم، وتجاوز بقوم حتى أفضى بهم الوسواس إلى الآصار والأغلال- وهم أشباه اليهود.

- وقصر بقوم حتى تزينوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه، وتجاوز بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يسقطون به جاههم عندهم، وسموا أنفسهم الملامتية.

- وقصر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها وعدوها فضلًا أو فضولًا، وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يسقط وارده لورده.

وهذا باب واسع جدًّا لو تتبعناه لبلغ مبلغًا كثيرًا، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة» ا. هـ[1].

الخصيصة الحادية عشرة: أنهم متفقون على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلَّا رسول الله ﷺ:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فإنه يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، فإنه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلَّا وحي يوحى، وهو الذي يُسأل الناس عنه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ

(١) انظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ١٦٩ - ٢٠١).

﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وهو الذي يمتحن به الناس في قبورهم، فيقال لأحدهم: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ويقال: ما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول: هو عبد الله ورسوله، جاءنا بالبينات والهدى فآمنّا به واتبعناه» ا. هـ[١].

وقال: «فأهل السنة متفقون على أن كل واحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلَّا رسول الله» ا. هـ[٢].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل يؤخذ من قوله ويترك إلَّا رسول الله ﷺ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عَزَّوَجَلَّ وتجب طاعتهم فيما يأمرون به؛ بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به؛ بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردودًا، وإن كان صاحبه من أولياء الله، وكان مجتهدًا معذورًا فيما قاله، له أجر على اجتهاده، لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئًا، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع» ا. هـ[٣].

الخصيصة الثانية عشرة: يعتقدون أن التكفير والتفسيق حق لله تعالى، فلا يكفرون ولا يفسقون إلَّا من استحق ذلك الوصف، ليس لهم هوى في ذلك[٤]:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «كثير ما يكون أهل البدع مع القدرة يُشْبِهُون

---

(١) انظر: منهاج السنة: (٦/ ١٩٠ - ١٩١).

(٢) انظر: منهاج السنة: (٤/ ١٨٢).

(٣) انظر: الفتاوى: (١١/ ٢٠٨).

(٤) وقد كتبت رسالة في «مسألة العذر بالجهل»، وقدم لها فضيلة شيخنا الشيخ صالح الفوزان حفظ الله تعالى، وسوف أنشرها بإذن الله قريبًا، وهي موجودة في موقعي على الشبكة العنكبوتية.

الكفار في استحلال قتل المؤمنين وتكفيرهم، كما يفعله الخوارج والرافضة والمعتزلة والجهمية وفروعهم، لكن فيهم من يقاتل بطائفة ممتنعة كالخوارج والزيدية، ومنهم من يسعى في قتل المقدور عليه من مخالفيه، إما بسلطانه، وإما بحيلته، ومع العجز يشبهون المنافقين، يستعملون التقية والنفاق كحال المنافقين، وذلك لأن البدع مشتقة من الكفر، فإن المشركين وأهل الكتاب هم مع القدرة يحاربون المؤمنين، ومع العجز ينافقونهم، والمؤمن مشروع له مع القدرة أن يقيم دين الله - **بحسب الإمكان** - بالمحاربة وغيرها، ومع العجز يمسك عما عجز عنه من الانتصار، ويصبر على ما يصيبه من البلاء من غير منافقة، بل يشرع له من المداراة ومن التكلم بما يُكرَه عليه ما جعل الله له فرجًا ومخرجًا.

ولهذا كان أهل السنة مع أهل البدعة بالعكس، إذا قدروا عليهم لا يعتدون عليهم بالتكفير والقتل وغير ذلك، بل يستعملون معهم العدل الذي أمر الله به ورسوله، كما فعل عمر بن عبد العزيز بالحرورية والقدرية، وإذا جاهدوهم، فكما جاهد علي رضي الله عنه الحرورية بعد الإعذار وإقامة الحجة، وعامة ما كانوا يستعملونه معهم الهجران والمنع من الأمور التي تظهر بسببها بدعتهم، مثل ترك مخاطبتهم ومجالستهم، لأن هذا هو الطريق إلى خمود بدعتهم، وإذا عجزوا عنهم لم ينافقوهم، بل يصبرون على الحق الذي بعث الله به نبيه، كما كان سلف المؤمنين يفعلون، وكما أمرهم الله في كتابه، حيث أمرهم بالصبر على الحق، وأمرهم أن لا يحملهم شنآن قوم على أن لا يعدلوا» ا. هـ[1].

وقال أيضًا: «فليس كل مخطئ ولا مبتدع، ولا جاهل ولا ضال، يكون كافرًا؛ بل ولا فاسقًا، بل ولا عاصيًا» ا. هـ[2].

وقال أيضًا: «فإذا كفر مخالفه صار من أهل البدع الذين يبتدعون بدعة

---

(١) انظر: التسعينية: (٢/ ٦٩٨ - ٧٠١).

(٢) انظر: الفتاوى: (١٢/ ١٨٠).

ويكفرون من خالفهم فيها، كما فعلت الخوارج وغيرهم» ا. هـ[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الحنبلية أيضًا مبتدعة؛ وإن كانت البدعة في غيرهم أكثر، وبدعتهم غالبًا في زيادة الإثبات في حق الله، وفي زيادة الإنكار على مخالفهم بالتكفير وغيره؛ لأن أحمد كان مثبتًا لما جاءت به السنة؛ منكرًا على من خالفها، مصيبًا في غالب الأمور، مختلفًا عنه في البعض ومخالفًا في البعض، وأما بدعة غيرهم فقد تكون أشد من بدعة مبتدعهم في زيادة الإثبات والإنكار؛ وقد تكون في النفي، وهو الأغلب كالجهمية؛ والقدرية؛ والمرجئة، والرافضة. وأما زيادة الإنكار من غيرهم على المخالف من تكفير وتفسيق فكثير» ا. هـ[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في رده على البكري: «وهذه الطريقة التي سلكها هذا وأمثاله هي طريقة أهل البدع؛ الذين يجمعون بين الجهل والظلم، فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الصحابة ويكفِّرون من خالفهم في بدعتهم، كالخوارج المارقين الذين ابتدعوا ترك العمل بالسنة المخالفة في زعمهم للقرآن، وابتدعوا التكفير بالذنوب، وكفروا من خالفهم حتى كفروا عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومن والاهما من المهاجرين والأنصار وسائر المؤمنين، نقل الأشعري في كتاب «المقالات» أن الخوارج مجمعة على تكفير علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكذلك الرافضة ابتدعوا تفضيل علي على الثلاثة وتقديمه في الإمامة والنص عليه، وادعوا العصمة له، وكفروا من خالفهم وهم جمهور الصحابة وجمهور المؤمنين، حتى كفروا أبا بكر وعمر وعثمان ومن والاهم، هذا الذي عليه أئمتهم. وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الجهمية والقدرية وغيرهم سلكوا هذا المسلك» ا. هـ[٣].

---

(١) انظر: الفتاوى: (١٦/ ٤٣٣).

(٢) انظر: الفتاوى: (٢٠/ ١٨٦ - ١٨٧).

(٣) انظر: الرد على البكري (١/ ٣٧٧ - ٣٨٥).

وقد اتضح بهذا أن أهل البدع: «يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المجملة دينًا، يوالون عليه ويعادون، بل يُكفرون من خالفهم فيما ابتدعوه، ويقول: مسائل أصول الدين: المخطئ فيها يكفر، وتكون تلك المسائل مما ابتدعوا، ومعلوم أن الخوارج هم مبتدعة مارقون، كما ثبت بالنصوص المستفيضة عن النبي ﷺ وإجماع الصحابة ذمُهم والطعن عليهم، وهم إنما تأوّلوا آيات من القرآن على ما اعتقدوه، وجعلوا من خالف ذلك كافرًا، لاعتقادهم أنه خالف القرآن، فمن ابتدع أقوالًا ليس لها أصل في القرآن، وجعل من خالفها كافرًا كان قوله شرًّا من قول الخوارج» ا. هـ[1].

الخصيصة الثالثة عشرة: متفقون أن التكفير المطلق لا يلزم منه تكفير المعين، وأن التفسيق المطلق لا يلزم منه تفسيق المعين:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك؛ بل لا يزول إلَّا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة» ا. هـ[2].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «التكفير العام - **كالوعيد العام** - يجب القول بإطلاقه وعمومه. وأما الحكم على المعين بأنه كافر، أو مشهود له بالنار: فهذا يقف على الدليل المعين، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه، وانتفاء موانعه» ا. هـ[3].

قال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ في الخوارج والرافضة ونحوهم ممن وقع في بعض المكفرات: «وأما تكفيرهم وتخليدهم: ففيه أيضًا للعلماء قولان مشهوران: وهما روايتان عن أحمد، والقولان في الخوارج والمارقين من الحرورية والرافضة ونحوهم. والصحيح أن هذه الأقوال التي يقولونها التي يعلم أنها

---

(١) انظر: درء التعارض: (١/ ٢٧٦).
(٢) انظر: الفتاوى: (١٢/ ٤٦٦).
(٣) انظر: الفتاوى: (١٢/ ٤٩٨).

مخالفة لما جاء به الرسول كفر، وكذلك أفعالهم التي هي من جنس أفعال الكفار بالمسلمين هي كفر أيضًا، وقد ذكرت دلائل ذلك في غير هذا الموضع؛ لكن تكفير الواحد المعين منهم والحكم بتخليده في النار موقوف على ثبوت شروط التكفير وانتفاء موانعه، فإنا نطلق القول بنصوص الوعد والوعيد والتكفير والتفسيق، ولا نحكم للمعين بدخوله في ذلك العام حتى يقوم فيه المقتضى الذي لا معارض له» ا. هـ[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعلماء قد تنازعوا في تكفير أهل البدع والأهواء وتخليدهم في النار، وما من الأئمة إلَّا من حكي عنه في ذلك قولان، كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وصار بعض أتباعهم يحكي هذا النزاع في جميع أهل البدع؛ وفي تخليدهم، حتى التزم تخليدهم كل من يعتقد أنه مبتدع بعينه، وفي هذا من الخطأ ما لا يحصى، وقابله بعضهم فصار يظن أنه لا يطلق كفر أحد من أهل الأهواء، وإن كانوا قد أتوا [بما أتوا][٢] من الإلحاد وأقوال أهل التعطيل والاتحاد.

والتحقيق في هذا: أن القول قد يكون مُكَفِّرًا، كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم، ولا يرى في الآخرة، ولكن قد يخفى على بعض الناس أنه كفر، فيطلق القول بتكفير القائل؛ كما قال السلف: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال: إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر، ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة كما تقدم، كمن جحد وجوب الصلاة، والزكاة، واستحل الخمر، والزنا وتأول؛ فإن ظهور تلك الأحكام بين المسلمين أعظم من ظهور هذه، فإذا كان المتأول المخطئ في تلك لا يحكم بكفره، إلَّا بعد البيان له واستتابته - **كما فعل الصحابة في الطائفة الذين استحلوا الخمر** -

---

(١) انظر: الفتاوى: (٢٨/ ٥٠٠ - ٥٠١).

(٢) زيادة ليستقيم المعنى.

ففي غير ذلك أولى وأحرى» ا. هـ[١].

وقال أيضًا: «التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وتكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلَّا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات، لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه، فإن الإمام أحمد - **مثلًا** - قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن، ونفي الصفات، وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس، والقتل والعزل عن الولايات، وقطع الأرزاق، ورد الشهادة، وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم: يكفرون كل من لم يكن جهميًّا موافقًا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر، فلا يولونه ولاية، ولا يفتكُّونه من عدو، ولا يعطونه شيئًا من بيت المال، ولا يقبلون له شهادة، ولا فتيا، ولا رواية، ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة، والافتكاك من الأسر وغير ذلك، فمن أقر بخلق القرآن حكموا له بالإيمان، ومن لم يقر به لم يحكموا له بحكم أهل الإيمان، ومن كان داعيًا إلى غير التجهم قتلوه أو ضربوه أو حبسوه، ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهم، فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب، ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره، ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم؛ فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية، الذين كانوا يقولون: القرآن

---

(١) انظر: الفتاوى: (٧/ ٦١٨ - ٦١٩).

مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، وقد نقل عن أحمد ما يدل على أنه كفر به قومًا معينين، فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر، أو يحمل الأمر على التفصيل، فيقال: من كفر بعينه؛ فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التفكير، وانتفت موانعه، ومن لم يكفر بعينه؛ فلانتفاء ذلك في حقه هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم، والدليل على هذا الأصل: الكتاب، والسنة، والإجماع، والاعتبار» ا. هـ[١].

الخصيصة الرابعة عشرة: متفقون على وجوب التحذير من أهل البدع، والمظهرين للفجور:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «كان السلف يحذّرون من هذين النوعين: من المبتدع في دينه، والفاجر في دنياه، كل من هذين النوعين وإن لم يكن كفرًا محضًا، فهو من الذنوب والسيئات التي تقع من أهل القبلة» ا. هـ[٢].

وقال أيضًا: «أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة؛ بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل لأحمد بن حنبل: (الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين؛ هذا أفضل).

فبَيَّنَ أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله، إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب؛ فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلَّا تبعًا، وأما

---

(١) انظر: الفتاوى: (١٢/ ٤٨٧ - ٤٨٩).

(٢) انظر: الاستقامة: (١/ ٤٥٥).

أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء» ا. هـ[١].

وقال رحمه الله تعالى: «وقد أوجب الله على المؤمنين الإيمان بالرسول والجهاد معه، ومن الإيمان به تصديقه في كل ما أخبر به، ومن الجهاد معه دفع كل من عارض ما جاء به وألحد في أسماء الله وآياته» ا. هـ[٢].

وقال: «ولهذا كان السلف يعدون كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء ويذمّونهم بذلك، ويأمرون بألا يغتر بهم، ولو أظهروا ما أظهروه من العلم والكلام والحِجَاج، أو العبادة والأحوال» ا. هـ[٣].

وقال رحمه الله: «والداعي إلى البدعة مستحق العقوبة باتفاق المسلمين، وعقوبته تكون تارة بالقتل، وتارة بما دونه، كما قتل السلف جهم بن صفوان، والجعد بن درهم، وغيلان القدري، وغيرهم، ولو قُدِّرَ أنه لا يستحق العقوبة أو لا يمكن عقوبته فلا بد من بيان بدعته والتحذير منها، فإن هذا من جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي أمر الله به ورسوله» ا. هـ[٤].

وقال أيضًا: «وبإزاء هؤلاء المكفرين بالباطل أقوام لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة كما يجب، أو يعرفون بعضه ويجهلون بعضه، وما عرفوه منه قد لا يبينونه للناس بل يكتمونه، ولا ينهون عن البدع المخالفة للكتاب والسنة، ولا يذمون أهل البدع ويعاقبونهم؛ بل لعلهم يذمون الكلام في السنة وأصول الدين ذمًّا مطلقًا؛ لا يفرقون فيه بين ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، وما يقوله أهل البدعة والفرقة، أو يقرون الجميع على مذاهبهم المختلفة، كما يُقَر العلماء في مواضع الاجتهاد التي يسوغ فيها النِّزاع، وهذه الطريقة قد تغلب

---

(١) انظر: الفتاوى: (٢٨/ ٢٣١ - ٢٣٢).
(٢) انظر: الفتاوى: (٢٠/ ١٦٥).
(٣) انظر: الاستقامة: (١/ ٢٥٤).
(٤) انظر: الفتاوى: (٣٥/ ٤١٤).

على كثير من المرجئة، وبعض المتفقهة، والمتصوفة، والمتفلسفة، كما تغلب الأولى على كثير من أهل الأهواء والكلام، وكلا هاتين الطريقتين منحرفة خارجة عن الكتاب والسنة، وإنما الواجب بيان ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، وتبليغ ما جاءت به الرسل عن الله، والوفاء بميثاق الله الذي أخذه على العلماء، فيجب أن يعلم ما جاءت به الرسل، ويؤمن به ويبلغه، ويدعو إليه، ويجاهد عليه، ويزن جميع ما خاض الناس فيه من أقوال وأعمال في الأصول والفروع الباطنة والظاهرة بكتاب الله وسنة رسوله، غير متبعين لهوى: من عادة، أو مذهب، أو طريقة، أو رئاسة، أو سلف؛ ولا متبعين لظن: من حديث ضعيف، أو قياس فاسد - **سواء كان قياس شمول أو قياس تمثيل** - أو تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله؛ فإن الله ذم في كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم من الهدى» ا. هـ[١].

وقال: «ما وقع في هذه الأمة من البدع والضلال، كان من أسبابه تقصير من قصَّر في إظهار السنة والهدى» ا. هـ[٢].

وقال: «والنبوة كلما ظهر نورها انطفت البدع» ا. هـ[٣].

الخصيصة الخامسة عشرة: هم القائمون بهجران أهل البدع والفجور مع مراعاة الضوابط الشرعية:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «والكلام الذي ذمّوه نوعان:

أحدهما: أن يكون في نفسه باطلًا وكذبًا، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل وكذب، فإن أصدق الكلام كلام الله.

والثاني: أن يكون فيه مفسدة، مثلما يوجد في كلام كثير منهم: من

---

(١) انظر: الفتاوى: (١٢/ ٤٦٧ - ٤٦٨).

(٢) انظر: درء التعارض: (٥/ ٣٧٨).

(٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٧٥).

النهي عن مجالسة أهل البدع، ومناظرتهم، ومخاطبتهم والأمر بهجرانهم وهذا لأن ذلك قد يكون أنفع للمسلمين من مخاطبتهم، فإن الحق إذا كان ظاهرًا قد عرفه المسلمون، وأراد بعض المبتدعة أن يدعو إلى بدعته، فإنه يجب منعه من ذلك، فإذا هجر وعُزِّر، كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بصبيغ بن عِسْل التميمي، وكما كان المسلمون يفعلونه، أو قُتِل كما قَتَل المسلمون الجعد بن درهم وغيلان القدري وغيرهما، كان ذلك هو المصلحة، بخلاف ما إذا تُرك داعيًا، وهو لا يقبل الحق: إما لهواه، وإما لفساد إدراكه، فإنه ليس في مخاطبته إلَّا مفسدة وضرر عليه وعلى المسلمين، والمسلمون أقاموا الحجة على غيلان ونحوه، وناظروه وبيَّنوا له الحق، كما فعل عمر بن عبد العزيز ﷺ واستتابه، ثم نكث التوبة بعد ذلك فقتلوه، وكذلك علي - ﷺ - بعث ابن عباس إلى الخوارج فناظرهم، ثم رجع نصفهم، ثم قاتل الباقين.

والمقصود أن الحق إذا ظهر وعُرف، وكان مقصود الداعي إلى البدعة إضرار الناس، قُوبل بالعقوبة» ا. هـ[1].

وقال رحمه الله: «وجماع الهجرة هي هجرة السيئات وأهلها، وكذلك هجران الدعاة إلى البدع، وهجران الفساق، وهجران من يخالط هؤلاء كلهم ويعاونهم، وكذلك من يترك الجهاد الذي لا مصلحة لهم بدونه، فإنه يعاقب بهجرهم له لما لم يعاونهم على البر والتقوى، فالزناة واللوطية وتارك الجهاد وأهل البدع وشربة الخمر هؤلاء كلهم ومخالطتهم مضرة على دين الإسلام، وليس فيهم معاونة لا على بر ولا تقوى، فمن لم يهجرهم كان تاركًا للمأمور فاعلًا للمحظور، فهذا ترك المأمور من الاجتماع، وذلك فعل المحظور منه، فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه» ا. هـ[2].

---

(١) انظر: درء التعارض: (٧/ ١٧٢ - ١٧٣).

(٢) انظر: الفتاوى: (١٥/ ٣١١ - ٣١٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فصل
في ضوابط الهجر

من ضوابط الهجر التي ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ما يلي:

الضابط الأول: التفريق بين المظهر للفجور أو الداعي إلى البدعة والمستتر والساكت:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الهجر الشرعي نوعان:

أحدهما: بمعنى الترك للمنكرات.

والثاني: بمعنى العقوبة عليها.

فالنوع الثاني: الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات، يهجر حتى يتوب منها، كما هجر النبي ﷺ والمسلمون: الثلاثة الذين خلفوا، حتى أنزل الله توبتهم، حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر، ولم يهجر من أظهر الخير، وإن كان منافقًا، فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير، والتعزير يكون لمن أظهر ترك الواجبات، وفعل المحرمات، كتارك الصلاة والزكاة والتظاهر بالمظالم والفواحش، والداعي إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع، وهذا حقيقة قول من قال من السلف والأئمة: إن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم، ولا يصلى خلفهم، ولا يؤخذ عنهم العلم، ولا يُناكحون، فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا؛ ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية؛ لأن الداعية أظهر المنكرات، فاستحق العقوبة، بخلاف الكاتم، فإنه ليس شرًّا من المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، مع علمه بحال كثير منهم، ولهذا جاء في الحديث: «إن المعصية إذا خفيت لم تضر إلَّا صاحبها، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة»، وذلك لأن النبي ﷺ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر

فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[١]، فالمنكرات الظاهرة يجب إنكارها؛ بخلاف الباطنة فإن عقوبتها على صاحبها خاصة» ا. هـ[٢].

وقال: «ولهذا قال الفقهاء: إن الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة، يعاقب بما لا يعاقب به الساكت» ا. هـ[٣].

فـ: «لا يهجر إلَّا الداعية إلى البدع دون الساكت الذي لا يدعو إليها وإن اعتقدها» ا. هـ[٤].

فقد صح عنه ﷺ أنه هجر كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم لما تخلفوا عن غزوة تبوك، وظهرت معصيتهم، وخيف عليهم النفاق، فهجرهم وأمر المسلمين بهجرهم، حتى أمرهم باعتزال أزواجهم من غير طلاق خمسين ليلة، إلى أن نزلت توبتهم من السماء، وكذلك أمر عمر رضي الله عنه المسلمين بهجر صبيغ بن عسل التميمي، لما رآه من الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب، إلى أن مضى عليه حول، وتبين صدقه في التوبة، فأمر المسلمين بمراجعته، فبهذا ونحوه رأى المسلمون أن يهجروا من ظهرت عليه علامات الزيغ من المظهرين للبدع، الداعين إليها، والمظهرين للكبائر، فأما من كان مستترًا بمعصية أو مسرًّا لبدعة غير مكفرة، فإن هذا لا يهجر، وإنما يهجر الداعي إلى البدعة؛ إذ الهجر نوع من العقوبة، وإنما يعاقب من أظهر المعصية قولًا وعملًا، وأما من أظهر لنا خيرًا فإنا نقبل علانيته، ونكل سريته إلى الله تعالى، فإن غايته أن يكون بمنزلة المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، لما جاءوا إليه عام تبوك يحلفون ويعتذرون، ولهذا كان الإمام أحمد وأكثر من قبله وبعده من الأئمة: كمالك وغيره لا يقبلون رواية الداعي إلى بدعة، ولا

---

(١) رواه أحمد (١)، وأبو داود (٤٣٣٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥).

(٢) انظر: الفتاوى: (٢٨/ ٢٠٣ - ٢٠٥).

(٣) انظر: الفتاوى: (٢٨/ ٣٥٥).

(٤) انظر: الفتاوى: (٦/ ٥٠٣).

يجالسونه، بخلاف الساكت، وقد أخرج أصحاب الصحيح عن جماعات ممن رمي ببدعة من الساكتين، ولم يخرجوا عن الدعاة إلى البدع» ا. هـ[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن عرف منه التظاهر بترك الواجبات، أو فعل المحرمات، فإنه يستحق أن يهجر، ولا يسلم عليه تعزيرًا له على ذلك، حتى يتوب» ا. هـ[٢].

الخصيصة السادسة عشرة: يأخذون بمقاصد الشريعة ولا يغفلون عن مراعاة المصالح والمفاسد:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «أهل السنة يجتهدون في طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[٣]، ويعلمون أن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ بصلاح العباد في المعاش والمعاد، وأنه أمر بالصلاح ونهى عن الفساد، فإذا كان الفعل فيه صلاح وفساد رجّحوا الراجح منهما، فإذا كان صلاحه أكثر من فساده رجّحوا فعله، وإن كان فساده أكثر من صلاحه رجّحوا تركه، فإن الله تعالى بعث رسوله ﷺ بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها». ا. هـ[٤].

وكل ما أمر الله به فمصلحته محضة أو غالبة، وكل ما نهى الله عنه، فمفسدته محضة أو غالبة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فكل ما أمر الله به ورسوله فمصلحته راجحة على مفسدته، ومنفعته راجحة على المضرة، وإن كرهته

---

(١) انظر: الفتاوى: (٢٤/ ١٧٤ - ١٧٥).
(٢) انظر: الفتاوى: (٢٣/ ٢٥٢).
(٣) رواه أحمد (٨١٤٤)، والبخاري (٧٢٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٣٣٧).
(٤) انظر: منهاج السنة (٤/ ٥٢٧).

النفوس...» ا. هـ[١].

وقال أيضًا: «كل ما يأمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته، والمصلحة هي المنفعة، والمفسدة هي المضرة... وهذا مذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف أن ما أمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة ومنفعته راجحة.

وأما ما كانت مضرته راجحة فإن الله لا يأمر به، وأما جهم ومن وافقه من الجبرية فيقولون: إن الله قد يأمر بما ليس فيه منفعة ولا مصلحة البتة، بل يكون ضررًا محضًا إذا فعله المأمور به، وقد وافقهم على ذلك طائفة من متأخري أتباع الأئمة ممن سلك مسلك المتكلمين - أبي الحسن الأشعري وغيره - في مسائل القدر، فنصر مذهب جهم والجبرية» ا. هـ[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «يكفي المؤمن أن يعلم أن ما أمر الله به فهو لمصلحة محضة أو غالبة، وما نهى الله عنه فهو مفسدة محضة أو غالبة، وأن الله لا يأمر العباد بما أمرهم لحاجته إليهم ولا نهاهم عما نهاهم بخلًا به عليهم، بل أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم، ولهذا وصف نبيه ﷺ بأنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]» ا.هـ[٣].

وقال أيضًا: «إن الله أمر بالصلاح، ونهى عن الفساد وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]» ا. هـ[٤].

---

(١) انظر: الفتاوى: (٢٤/ ٢٧٨).
(٢) انظر: الفتاوى: (١٦/ ١٦٥ - ١٦٦).
(٣) انظر: الفتاوى: (٢٧/ ٩١).
(٤) انظر: الفتاوى: (٣١/ ٢٦٦).

وقال رحمه الله تعالى: «والشريعة مبناها على دفع الفسادين بالتزام أدناهما» ا.هـ[١].

فـ: «الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فهي تحصل أعظم المصلحتين بفوات أدناهما، وتدفع أعظم الفسادين باحتمال أدناهما» ا. هـ[٢].

«ولهذا جاءت الشريعة عند تعارض المصالح والمفاسد، بتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وباحتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما» ا. هـ[٣].

«ومن أصول الشرع أنه إذا تعارض المصلحة والمفسدة قدم أرجحهما» ا. هـ[٤].

وقال: «إذ الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، والورع ترجيح خير الخيرين بتفويت أدناهما، ودفع شر الشرين وإن حصل أدناهما» ا. هـ[٥].

وقال رحمه الله: «فإن مدار الشريعة على قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، المفسر لقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وعلى قوله النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[٦] أخرجاه في «الصحيحين»، وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها؛ وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما: هو المشروع» ا. هـ[٧].

---

(١) انظر: الاستقامة: (١/ ٣٣).
(٢) انظر: الاستقامة: (١/ ٢٨٨).
(٣) انظر: الفتاوى: (٣١/ ٩٢).
(٤) انظر: الفتاوى: (٢٠/ ٥٣٨).
(٥) انظر: الفتاوى: (٣٠/ ١٩٣).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) انظر: الفتاوى (٢٨/ ٢٨٤).

وقال أيضًا: «الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، ورجحت خير الخيرين بتفويت أدناهما، وهذا من فوائد نصب ولاة الأمور» ا. هـ[١].

ف: «قاعدة الشريعة: «تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما» ا. هـ[٢].

وقال أيضًا: «... وأصل هذا أن الله جل وعز بعث الرسل لتحصيل المصالح، وتكميلها بحسب الإمكان، وتقديم خير الخيرين بتفويت أدناهما، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم على عباده، وأوجب العدل، فإذا قُدر ظلم وفساد ولم يمكن دفعه كان الواجب تخفيفه، وتحري العدل والمصلحة بحسب الإمكان» ا. هـ[٣].

وقال: «فيجب دفع أعظم الفسادين باحتمال أدناهما، إذ ذلك قاعدة مستقرة في الشريعة» ا. هـ[٤].

وقال أيضًا رحمه الله: «فعند اجتماع المصالح والمفاسد والمنافع والمضار وتعارضها؛ يُحتاج إلى الفرقان» ا. هـ[٥].

وقال رحمه الله: «والشريعة جميعها مبنية على أن المفسدة المقتضية للتحريم إذا عارضتها حاجة راجحة أبيح المحرم» ا. هـ[٦].

وقال رحمه الله: «لا ينبغي أن ينظر إلى غلظ المفسدة المقتضية للحظر إلَّا وينظر مع ذلك إلى الحاجة الموجبة للإذن؛ بل الموجبة للاستحباب،

---

(١) انظر: الفتاوى: (٣٠/ ١٣٦).
(٢) انظر: الفتاوى: (٢٩/ ٢٢٨).
(٣) انظر: الفتاوى: (٢٩/ ٢٧١).
(٤) انظر: الفتاوى: (٢٩/ ٤٨٥).
(٥) انظر: الفتاوى: (١٠/ ٦١٩).
(٦) انظر: الفتاوى: (٢٩/ ٤٩).

أو الإيجاب» ا. هـ[١].

وقال: «والعلم بجهة المصلحة قد تُنالُ بالوحي وقد تنال بالاجتهاد» ا. هـ[٢].

وقال: «فإن أمكن تولية إمام برّ لم يجز تولية فاجر ولا مبتدع يظهر بدعته، فإن هؤلاء يجب الإنكار عليهم بحسب الإمكان ولا يجوز توليتهم، فإن لم يمكن إلَّا تولية أحد رجلين كلاهما فيه بدعة وفجور، كان تولية أصلحهما ولاية هو الواجب، وإذا لم يمكن في الغزو إلَّا تأمير أحد رجلين: أحدهما فيه دين وضعف عن الجهاد، والآخر فيه منفعة في الجهاد مع ذنوب له، كان تولية هذا الذي ولايته أنفع للمسلمين، خيرًا من تولية من ولايته أضرّ على المسلمين» ا.هـ[٣].

وقال: «اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة. فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة؛ قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررًا فيها؛ فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع - وإن كان فيه فجور - على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أمينًا؛ كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو؛ وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزى؟ فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه؛ وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوي الفاجر. وقد قال النبي ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[٤]، وروي: «بأقوام لا خلاق لهم»، وإن لم يكن فاجرًا، كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا

---

(١) انظر: الفتاوى: (٢٦/ ١٨١).

(٢) انظر: الصارم المسلول: (ص: ١٩٧).

(٣) انظر: منهاج السنة: (٤/ ٥٢٦ - ٥٢٧).

(٤) رواه أحمد (٨٠٩١)، والبخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

لم يسد مسده...» ا. هـ[١].

وقال أيضًا: «وقتال الدفع مثل أن يكون العدو كثيرًا لا طاقة للمسلمين به لكن يخاف إن انصرفوا عن عدوهم عطف العدو على من يخلفون من المسلمين، فهنا قد صرح أصحابنا بأنه يجب أن يبذلوا مهجهم ومهج من يخاف عليهم في الدفع حتى يَسْلَموا، ونظيرها أن يهجم العدو على بلاد المسلمين وتكون المقاتلة أقل من النصف، فإن انصرفوا استولوا على الحريم، فهذا وأمثاله قتال دفع لا قتال طلب لا يجوز الانصراف فيه بحال، ووقعة أُحد من هذا الباب. والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدين دون الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين فلا يؤخذ برأيهم، ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا» ا. هـ[٢].

وقال: «كان يعفو عن المنافقين الذين لا يشك في نفاقهم، حتى قال: «لو أعلم أني لو زدت على السبعين غُفِرَ له لزدت»[٣]، حتى نهاه الله عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم، وأمره بالإغلاظ عليهم، فكثير مما كان يحتمله من المنافقين من الكلام وما يعاملهم من الصفح والعفو والاستغفار كان قبل نزول براءة، لما قيل له: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، لاحتياجه إذ ذاك إلى استعطافهم، وخشية نفور العرب عنه إذا قتل أحدًا منهم، وقد صرَّح ﷺ لما قال ابن أبي: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، ولما قال ذو الخويصرة: «اعدل فإنك لم تعدل»، وعند غير هذه القصة: «إنما لم يقتلهم لئلا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[٤].

---

(١) انظر: الفتاوى: (٢٨/ ٢٥٤ - ٢٥٥).

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى: (٤/ ٤٤٤ - ٤٤٥).

(٣) رواه أحمد (٩٥)، والبخاري (١٣٦٦)، والترمذي (٣٠٩٧) واللفظ له.

(٤) رواه أحمد (١٤٨٢٠)، والبخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

فينفر الناس عن الدخول في الإسلام، وإذا كان من شريعته أن يتألف الناس على الإسلام بالأموال العظيمة، ليقوم دين الله وتعلو كلمته، فلأن يتألفهم بالعفو أولى وأحرى، فلما أنزل الله تعالى براءته، ونهاه عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم، وأمره أن يجاهد الكفار والمنافقين، ويغلظ عليهم، نسخ جميع ما كان المنافقون يعاملون به من العفو، كما نسخ ما كان الكفار يعاملون به من الكف عمن سالم، ولم يبق إلَّا إقامة الحدود، وإعلاء كلمة الله في حق كل إنسان» ا. هـ[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال الكفار الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» ا. هـ[٢].

وقال: «فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أُمرنا به؛ ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر، وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد؛ بل كل ما أمر الله به فهو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد تُرك واجب وفُعل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده وليس عليه هداهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والاهتداء إنما

---

(١) انظر: الصارم المسلول: (٢٣١ - ٢٤٥).

(٢) انظر: الصارم المسلول: (٢٢٩).

يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال.

وذلك يكون تارة بالقلب؛ وتارة باللسان؛ وتارة باليد، فأما القلب فيجب بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: «وذلك أدنى - أو - أضعف الإيمان»[١]، وقال: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[٢]، وقيل لابن مسعود: من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان» ا. هـ[٣].[٤].

(١) رواه أحمد (١١٠٧٣)، ومسلم (٤٩).

(٢) رواه مسلم (٥٠).

(٣) انظر: الفتاوى: (٢٨/ ١٢٦ - ١٢٧)

(٤) وهذه الخصيصات التي ذكرتها هنا، ومما لم أذكره أيضًا هي موجود على شكل قواعد في كتابي «الإصباح في بيان منهج السلف في التربية والإصلاح»، قدّم له فضيلة شيخنا الشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى، وعلق فضيلته على بضع عشرة قاعدة من تلك القواعد، وهي مثبتة في الكتاب، وهو مطبوع بفضل الله تعالى.

الأصل الثالث

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا، ولو كان عبدًا حبشيًا، وبين الله هذا بيانًا شرعيًا كافيًا بوجوه من أنواع البيان شرعًا وقدرًا، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف بالعمل به» ا. هـ.

الشرح

هذا الأصل دل عليه كتابُ الله وسنة رسوله وإجماع الأمّة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، وقد ثبت عن جمع من الصحابة تفسير أولي الأمر بأنهم الأمراء، ثبت عن أبي هريرة وابن عباس. وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٥٣].

قال الشافعي رحمه الله: «إن قريشًا كانوا لا يعرفون الإمارة، ولا ينقادون إلى أمير، فكان من شرع الله المخالف لما عليه أهل الجاهلية، الأمر بالسمع والطاعة لمن ولي الأمر» ا. هـ[1].

قوله: (ولو كان عبدًا حبشيًا... إلخ)

يشير إلى قول النبي ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زَبِيبَةٌ»[2].

---

(١) انظر فتح الباري: (٨/ ٢٥٤).

(٢) رواه البخاري: (٦٦١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقوله ﷺ: «فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(١).

ويستنبط من هذا الحديث:

الرد على بعض الحركات الإسلامية في هذا العصر التي تقدم السياسة على العقيدة والشريعة، وذلك أن النبي ﷺ لما تكلم في أمر الإمارة هون فيها وقال: «اسمعوا وأطيعوا» ولو تأمر عليكم من تعتقدون أنه دونكم، ولكنه لما ذكر أمر الدين والعقيدة وما يتعلق بالله ﷻ لم يتساهل أبدًا فقال ﷺ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

الأدلة من السُّنة على هذا الأصل:

الحديث الأول: عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»(٢).

الحديث الثاني: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ

---

(١) رواه أبو داود: (٤٦٠٧)، والترمذي: (٢٦٧٦)، وابن ماجه: (٤٢)، وأحمد: (١٧١٨٤)، والطبراني في المعجم الكبير: (٢٢١)، وابن حبان في صحيحه: (٥)، والحاكم في المستدرك: (٣٢٩) وصححه، ووافقه الذهبي وقال: «صحيح ليس له علة» ا. هـ، قال أبو عيسى: «هذا حديث صحيح» ا. هـ، وصححه الشيخ الألباني.

(٢) رواه البخاري: (٢٧٢٥)، ومسلم: (٤٨٦٩).

شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ[١]»

الحديث الثالث: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ»، قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا صَلَّوْا»[٢].

الحديث الرابع: عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا»، قَالُوا فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا اللهَ حَقَّكُمْ»[٣].

الحديث الخامس: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ، فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ؛ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[٤].

الحديث السادس: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ؛ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»[٥].

الحديث السابع: عَنْ عَرْفَجَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ؛ فَاقْتُلُوهُ»[٦].

---

(١) رواه مسلم: (١٨٥٥).
(٢) رواه مسلم: (١٨٥٤).
(٣) رواه البخاري: (٦٦٤٤).
(٤) رواه البخاري: (٦٦٤٦)، ومسلم: (١٨٤٩).
(٥) رواه مسلم: (١٨٤٨).
(٦) رواه مسلم: (١٨٥٢).

الحديث الثامن: عَنْ نَافِعٍ قَالَ: جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مُطِيعٍ حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ، زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: اطْرَحُوا لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِكَ لِأَجْلِسَ، أَتَيْتُكَ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»(١).

الحديث التاسع: عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيَّةً أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً؛ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»(٢).

الحديث العاشر: عَنْ أَبِي سَلَّامٍ قَالَ: «قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ فَجَاءَ اللهُ بِخَيْرٍ فَنَحْنُ فِيهِ، فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ كَيْفَ؟ قَالَ: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ! إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ. فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»(٣).

الحديث الحادي عشر: عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ الْحَضْرَمِّي عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ فَجَذَبَهُ الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، وَقَالَ: اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ(٤).

---

(١) رواه مسلم: (١٨٥١).
(٢) رواه مسلم: (١٨٥٠).
(٣) رواه مسلم: (١٨٤٧).
(٤) رواه مسلم: (١٨٤٦).

الحديث الثاني عشر: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ: الصَّلَاةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ، هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ»، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ: أَنْشُدُكَ اللهَ آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ: سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي، فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩]، قَالَ: فَسَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللهِ. وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ(١).

الحديث الثالث عشر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَعَدَلَ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ، وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ»(٢).

---

(١) رواه مسلم: (١٨٤٤).

(٢) رواه مسلم: (١٨٤١).

وفي البخاري[١]: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا، وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ».

الحديث الرابع عشر: عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْنَا: حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٢].

الحديث الخامس عشر: عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيُطِيعُوا، فَأَغْضَبُوهُ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ: اجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا لَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوا، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ يَأْمُرْكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تَسْمَعُوا لِي وَتُطِيعُوا؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَادْخُلُوهَا، قَالَ: فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالُوا: إِنَّمَا فَرَرْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ النَّارِ، فَكَانُوا كَذَلِكَ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، وَطُفِئَتِ النَّارُ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[٣].

الحديث السادس عشر: عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ الْحُصَيْنِ، قَالَ: سَمِعْتُهَا تَقُولُ: حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ - قَالَتْ - فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْلًا كَثِيرًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - حَسِبْتُهَا

---

(١) رواه البخاري: (٢٩٥٧).

(٢) رواه البخاري: (٦٦٤٧)، ومسلم: (١٧٠٩).

(٣) رواه مسلم: (١٨٤٠).

قَالَتْ - أَسْوَدُ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[١].

الحديث السابع عشر: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! لَا نَسْأَلُكَ عَنْ طَاعَةِ مَنِ اتَّقَى، وَلَكِنْ مَنْ فَعَلَ وَفَعَلَ، فَذَكَرَ الشَّرَّ، فَقَالَ: «اتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذا أمره بقتال الخوارج وهذا نهيه عن قتال الولاة الظلمة، وهذا مما يستدل به على أنه ليس كل ظالم باغ يجوز قتاله، ومن أسباب ذلك أن الظالم الذي يستأثر بالمال والولايات لا يقاتل في العادة إلَّا لأجل الدنيا، يقاتله الناس حتى يعطيهم المال والولايات وحتى لا يظلمهم، فلم يكن أصل قتالهم ليكون الدين كله لله ولتكون كلمة الله هي العليا، ولا كان قتالهم من جنس قتال المحاربين قطاع الطريق الذين قال فيهم: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون حرمته فهو شهيد»، لأن أولئك معادون لجميع الناس وجميع الناس يعينون على قتالهم، ولو قدر أنه ليس كذلك العداوة والحرب، فليسوا ولاة أمر قادرين على الفعل والأخذ، بل هم بالقتال يريدون أن يأخذوا أموال الناس ودماءهم، فهم مبتدؤون الناس بالقتال بخلاف ولاة الأمور، فإنهم لا يبتدؤون بالقتال للرعية. وفرَّق بين من تقاتله دفعًا وبين من تقاتله ابتداء، ولهذا هل يجوز في حال الفتنة قتال الدفع؟ فيه عن أحمد روايتان، لتعارض الآثار والمعاني. وبالجملة العادة المعروفة أن الخروج على ولاة الأمور يكون لطلب ما في أيديهم من المال والإمارة وهذا قتال على الدنيا» ا. هـ[٣].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ولكن تواتر عنه أنه أمر بقتال الخوارج المارقين الذين

---

(١) رواه مسلم: (١٨٣٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٣٦٩٤)، وابن أبي عاصم في السنة: (٢/ ٥٠٨)، وصححه الألباني.

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية: (٥/ ١٥١).

قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنهروان بعد خروجهم عليه بحروراء. فهؤلاء استفاضت السنن عن النبي ﷺ بالأمر بقتالهم. ولما قاتلهم علي رضي الله عنه فرح بقتالهم، وروى الحديث فيهم، واتفق الصحابة على قتال هؤلاء، وكذلك أئمة أهل العلم بعدهم لم يكن هذا القتال عندهم كقتال أهل الجمل وصفين وغيرهما، مما لم يأت فيه نص ولا إجماع ولا حمده أفاضل الداخلين فيه، بل ندموا عليه ورجعوا عنه» ا. هـ[1].

أنواع الخارجين[2]:

النوع الأول: الخوارج.

النوع الثاني: البغاة.

النوع الثالث: قطاع الطريق.

وسوف نذكر شيء من صفات كل نوع من هذه الأنواع، حتى يميز طالب العلم بينهم.

النوع الأول: الخوارج.

ما جاء في السنة الصحيحة من صفات الخوارج:

أولا: أنهم يردُّون السُّنة، إذا لم يرد صراحة ما يؤيدها في القرآن:

روى الشيخان عن مُعَاذَةَ: أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ عَائِشَةَ فقالت: أَتَقْضِي إِحْدَانَا الصَّلَاةَ أَيَّامَ مَحِيضِهَا؟ فقالت عَائِشَةُ: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ! قد كانت إِحْدَانَا تَحِيضُ

(١) انظر: منهاج السنة النبوية: (٤/ ٥٣٢).

(٢) وهذا البحث قد استوفيته في كتابي: «الحركات الإسلامية المعاصرة»، وقد راجعه فضيلة شيخنا الشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى، وهو مطبوع بفضل الله تعالى، طالعه غير مأمور.

على عَهْدِ رسول اللهِ ﷺ ثُمَّ لَا تُؤْمَرُ بِقَضَاءٍ[١].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخوارج لا يتمسكون من السُّنة إلَّا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم، فلا يرجمون الزاني ولا يرون للسرقة نصابًا» ا. هـ[٢].

ثانيًا: أنهم ينزلون الآيات التي نزلت في الكفار على المسلمين فيحكمون بكفرهم:

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان ابن عُمَرَ يَرَاهُمْ شِرَارَ خَلْقِ اللهِ، وقال: «إِنَّهُمْ انْطَلَقُوا إلى آيَاتٍ نَزَلَتْ في الْكُفَّارِ فَجَعَلُوهَا على الْمُؤْمِنِينَ»[٣].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال أبو جعفر الطبري في كتاب تهذيب الآثار له: ثنا يونس ثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن بكيرًا حدثه أنه سأل نافعًا: كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟ قال: يراهم شرار خلق الله انطلقوا إلى آيات في الكفار فجعلوها في المؤمنين.

وهكذا ذكر ابن عبد البر في الاستذكار أن ابن وهب رواه في جامعه وبين أن بكيرًا هو ابن عبد الله بن الأشج وإسناده صحيح. ا. هـ[٤].

ثالثًا: أنهم يقرأون القرآن ولكنهم لا يفقهون:

كما قال تعالى عن اليهود: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تلاوة». وقال تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

---

(١) رواه البخاري: (٣١٥)، ومسلم: (٣٣٥).
(٢) انظر مجموع الفتاوى: (١٣/ ٤٨).
(٣) رواه البخاري: (٦/ ٢٥٣٩).
(٤) انظر: تغليق التعليق: (٥/ ٢٠٩).

وقال النبي ﷺ في الخوارج: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الْقِدْحِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الْفُوقِ»(١).

رابعًا: أنهم بسبب فساد منهجهم في الاستدلال انقلبت عندهم المفاهيم وفسدت التصورات، ولذا فإنهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان:

وسلفهم في ذلك اليهود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤ - ٨٥]، وقال ﷺ: «... يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، لَئِنْ أنا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»(٢).

خامسًا: أنهم بسبب تكفيرهم المجتمع المسلم يرون أن الإصلاح لا يكون إلَّا بالعنف والقتل:

قال تعالى مبينًا فساد هذا السبيل: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: ١٩]، ولا يخفى أن الذي قتله موسى عليه السلام كان كافرًا، ولكن لما لم يكن بإذن من الله صار

(١) رواه البخاري: (٥٠٥٨)، ومسلم: (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري: (٣٣٤٤)، ومسلم: (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

خطيئة، مع أنه لم يتعمد قتله.

سادسًا: أنه يصدق عليهم:

قوله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤]، وعن زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رضي الله عنه، الذين ساروا إلى الخوارج، فقال: أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليست قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم...»[(١)].

ويصدق عليهم:

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، أخرج ابن أبي حاتم في **التفسير**[(٢)]: عَنْ أَبِي قِلابَةَ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾: أَهُمْ عُمَّالُنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ؟

قَالَ: لَيْسَ هُمْ، إِنَّ هَؤُلاءِ لَيْسَ أَحَدُهُمْ يَأْتِي شَيْئًا مِمَّا لا يَحِلُّ لَهُ، إِلا قَدْ عَرَفَ أَنْ ذَلِكَ حَرَامٌ عَلَيْهِ، إِنْ أَتَى الزِّنَا فَهُوَ حَرَامٌ، أَوْ قَتَلَ النَّفْسَ فَهُوَ حَرَامٌ، إِنَّمَا أُولَئِكَ أَهْلُ الْمِلَلِ، الْيَهُودُ، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسُ، وَأَظُنُّ الْخَوَارِجَ مِنْهُمْ، لِأَنَّ الْخَارِجِيَّ يَخْرُجُ بِسَيْفِهِ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَقَدْ عَرَفَ أَنَّهُ لَيْسَ يَنَالُ حَاجَتَهُ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ سَوْفَ يَقْتُلُونَهُ، وَلَوْلا أَنَّهُ مِنْ دِينِهِ مَا فَعَلَ ذَلِكَ. ا. هـ.

وصدق رحمه الله فقد سماهم ﷺ: كلاب النار، في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجة، وأحمد والطبراني: عن أبي غالب أنه قال: رأى أبو أمامة

---

(١) رواه مسلم: (١٠٦٦).

(٢) انظر تفسير ابن حاتم: (١٢/ ٣١).

رؤوس الأزارقة منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة رضي الله عنه: «كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه»، ثم قرأ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعه إلَّا مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا حتى عد سبعًا، ما حدثتكموه[١].

ووجه قوله: «**كلاب النار**»: أن كلاب الصيد ليس لها منه إلَّا الدماء، وهكذا الخوارج ليس لهم على مر التاريخ من خروجهم إلَّا الدماء.

سابعًا: أنهم لا يريدون أن يجتمع المسلمون على إمام بحجة أنه لا يحكم بشرع الله، ويطعنون على أمرائهم، ويشهدون عليهم بالضلال:

عن أبي إسحاق قال: لما حكمت الحرورية قال علي: ما يقولون؟ قيل: يقولون: لا حكم إلَّا لله، قال: الحكم لله وفي الأرض حكام، ولكنهم يقولون: لا إمارة، ولا بد للناس من إمارة يعمل فيها المؤمن، ويستمتع فيها الفاجر والكافر، ويبلغ الله فيها الأجل[٢]، وهم بهذا يريدون أن يكون المجتمع المسلم فوضى لا سراة لهم، ولذا في حديث أبي سعيد أنهم: «يخرجون على حين فرقة من الناس»[٣].

ثامنًا: أن ضررهم على المسلمين أشد من ضرر اليهود والنصارى:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وما روي من أنهم: «شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتيل من قتلوه»، في الحديث الذي رواه أبو أمامة رواه الترمذي وغيره: أي أنهم شر على المسلمين من غيرهم، فإنهم لم يكن أحد

---

(١) رواه الترمذي: (٣٠٠٠)، وابن ماجه: (١٧٦)، وأحمد: (٢٢٢٦٢)، والطبراني في المعجم الكبير: (٧٤٣١)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن»، وحسنه الشيخ الألباني، رحم الله تعالى الجميع.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه: (١٠/ ١٤٩).

(٣) رواه البخاري: (٣٤١٤)، ومسلم: (١٠٦٤).

شرًّا على المسلمين منهم، لا اليهود ولا النصارى، فإنهم كانوا مجتهدين في قتل كل مسلم لم يوافقهم، مستحلين لدماء المسلمين وأموالهم وقتل أولادهم، مكفرين لهم، وكانوا متدينين بذلك لعظم جهلهم وبدعتهم المضلة» ا. هـ[١].

تاسعًا: أنه ﷺ وصفهم بأنهم شر الخليقة:

عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «إِنَّ بَعْدِي من أُمَّتِي -أو سَيَكُونُ بَعْدِي من أُمَّتِي قَوْمٌ يقرأون الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَلَاقِيمَهُمْ، يَخْرُجُونَ من الدِّينِ كما يَخْرُجُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فيه، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ»، فقال ابْنُ الصَّامِتِ: فَلَقِيتُ رَافِعَ بن عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ أَخَا الْحَكَمِ الْغِفَارِيِّ، قلت: ما حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ من أبي ذَرٍّ كَذَا وَكَذَا، فَذَكَرْتُ له هذا الحديث، فقال: وأنا سَمِعْتُهُ من رسول اللهِ ﷺ[٢].

ولهذا قال بعض الأئمة أنهم كفار، لأنه لم ترد هذه الصيغة في القرآن والسنة إلَّا في الكفار، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وعن عَائِشَةَ: أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فيها تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فقال رسول اللهِ ﷺ: «إِنَّ أُولَئِكِ إذا كان فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا على قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فيه تِلْكِ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يوم الْقِيَامَةِ»[٣].

عاشرًا: أنهم سفهاء الأحلام، وجمهورهم أحداث الأسنان:

فعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ

---

(١) انظر منهاج السنة: (٥/ ٢٤٨).

(٢) رواه مسلم: (١٠٦٧).

(٣) رواه البخاري: (٣٨٧٣)، ومسلم: (٥٢٨).

الرَّمِيَّةِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخرجه من جامع ابن وهب أخبرني يحيى بن أيوب عن هشام بن عروة أنه سمع أباه يقول: «لم يزل أمر بني إسرائيل مستقيمًا حتى حدث فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم، فأحدثوا فيهم القول بالرأي وأضلوا بني إسرائيل»، قال: وكان أبي يقول: «السنن السنن، فإن السنن قوام الدين».

وعن ابن وهب أخبرني بكر بن مضر، عمن سمع ابن شهاب الزهري وهو يذكر ما وقع الناس فيه من الرأي وتركهم السنن، فقال: «إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذي كان بأيديهم حين استقلوا الرأي وأخذوا فيه».

وفي مصنف قاسم بن أصبغ بسند صحيح عن عمر: «فساد الدين إذا جاء العلم من قبل الصغير استعصى عليه الكبير»» ا. هـ[٢].

الحادي عشر: أنهم يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَنَسِ بن مَالِكٍ عن رسول اللهِ ﷺ قال: «سَيَكُونُ في أُمَّتِي اخْتِلَافٌ وَفُرْقَةٌ، قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْقِيلَ وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ، يقرؤون الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ من الرَّمِيَّةِ، لَا يَرْجِعُونَ حتى يَرْتَدَّ على فُوقِهِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوهُ، يَدْعُونَ إلى كِتَابِ اللهِ وَلَيْسُوا منه في شَيْءٍ، من قَاتَلَهُمْ كان أَوْلَى بِاللَّهِ منهم»، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ ما سِيمَاهُمْ؟ قال: «التَّحْلِيقُ»[٣].

---

(١) رواه البخاري: (٦٩٣٠)، ومسلم: (١٠٦٦) واللفظ له.

(٢) انظر فتح الباري: (١٣/ ١٠٣) باختصار.

(٣) رواه أبو داود: (٤٧٦٥)، وأحمد: (١٣٣٦٢)، وصححه الشيخ الألباني، وأصله في الصحيح.

الثاني عشر: أن النبي ﷺ لم يعين فرقة من فرق المسلمين ويأمر بقتالها سوى الخوارج، مع إخباره أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة:

وهذا يرجح قول من قال بكفرهم، ولهذا سميت سورة التوبة بالفاضحة، فلم تدع من أوصاف المنافقين شيئًا إلَّا ذكرته، وما ذاك إلَّا لعظم خطرهم على الإسلام والمسلمين، والذي يجمع الخوارج والمنافقين هو الختم على القلب، قال تعالى عن سلف الخوارج: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥]، وقال عن المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، وفي السُّنة قوله ﷺ: «يخرج ناس من قبل المشرق، ويقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه»[(١)]، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال النبي ﷺ: «إن من ضئضئ هذا قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[(٢)]، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال ﷺ: «... لو يعلم الجيش الذي يصيبونهم ما قضي لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتكلوا عن العمل...»[(٣)].

الثالث عشر: أنهم مع تجبرهم على العباد وجرأتهم على الله معجبون بأنفسهم، ويعجبون الجاهل من الناس:

وهم في هذا يشبهون إبليس، فقد كان من العبَّاد وهم كذلك، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، فعن أنس أن

---

(١) رواه البخاري: (٧٥٦٢).

(٢) رواه البخاري: (٧٤٣٢)، ومسلم: (١٠٦٤).

(٣) رواه مسلم: (١٠٦٦)، من حديث علي رضي الله عنه.

النبي ﷺ قال: «إن منكم قومًا يتعبدون حتى يعجب الناس وتعجبهم أنفسهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «أصول الخطايا كلها ثلاثة:

- **الكبر**: وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره.

- **والحرص**: وهو الذي أخرج آدم من الجنة.

- **والحسد**: وهو الذي جرأ أحد ابني آدم على أخيه.

فمن وقي شر هذه الثلاثة فقد وقي الشر، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد» ا. هـ(٢).

وقال أيضًا رحمه الله: «ولا تنس خطيئة الأبوين قديمًا، فإنما كان سببها حب الخلود في الدنيا، ولا تنس ذنب إبليس، وسببه حب الرياسة التي محبتها شر من محبة الدنيا، وبسببها كفر فرعون وهامان وجنودهما وأبو جهل وقومه واليهود، فحب الدنيا والرياسة هو الذي عمر النار بأهلها» ا. هـ(٣).

الرابع عشر: أن سبب وقوعهم في هذا الأمر هو مخالفة قوله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»(٤).

وفي لفظ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق»(٥)، فتعمقوا وتنطعوا،

---

(١) رواه أحمد: (١٢٩٩٥)، وأبو يعلى في مسنده: (٤٠٦٦)، والضياء في المختارة: (٢٣٩٤)، وقال: «إسناده صحيح» ا. هـ، واللفظ له، وابن أبي عاصم في السنة: (٩٤٥)، وصححه الألباني.

(٢) انظر الفوائد: (ص٥٨).

(٣) انظر عدة الصابرين: (ص١٨٥).

(٤) رواه البخاري: (٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه أحمد: (١٣٠٧٤)، والضياء في المختارة: (٢١١٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فكان ذلك سببًا لزيغ قلوبهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

الخامس عشر: ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والخطيب: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ، يقول الله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠]»[(١)].

ولهذا تجد الخوارج ومن ضاهاهم من أعظم الناس غمًّا وأضيقهم صدرًا، ومن هنا يكثرون القتل، يظنون أنه يزيل هذا الغم، كما قيل:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال آخر:

وكانت دوائي وهي دائي بعينه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

السادس عشر: أنهم شر من أهل المعاصي والذنوب، «وَكَذَلِكَ الْمُبْتَدِعُ الَّذِي خَرَجَ عَنْ بَعْضِ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ وَاسْتَحَلَّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشَرِيعَتِهِ وَأَمْوَالِهِمْ؛ هُوَ أَوْلَى بِالْمُحَارَبَةِ مِنْ الْفَاسِقِ، وَإِنِ اتَّخَذَ ذَلِكَ دِينًا يَتَقَرَّبُ بِهِ إلَى اللهِ. كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى تَتَّخِذُ مُحَارَبَةَ الْمُسْلِمِينَ دِينًا تَتَقَرَّبُ بِهِ إلَى اللهِ. وَلِهَذَا اتَّفَقَ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى أَنَّ

(١) رواه مسلم: (٢٩٠٥).

هَذِهِ الْبِدَعَ الْمُغَلَّظَةَ شَرٌّ مِنْ الذُّنُوبِ الَّتِي يَعْتَقِدُ أَصْحَابُهَا أَنَّهَا ذُنُوبٌ. وَبِذَلِكَ مَضَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْثُ أَمَرَ بِقِتَالِ الْخَوَارِجِ عَنْ السُّنَّةِ وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ الْأَئِمَّةِ وَظُلْمِهِمْ وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ مَعَ ذُنُوبِهِمْ، وَشَهِدَ لِبَعْضِ الْمُصِرِّينَ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى بَعْضِ الذُّنُوبِ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَنَهَى عَنْ لَعْنَتِهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ ذِي الخويصرة وَأَصْحَابِهِ - مَعَ عِبَادَتِهِمْ وَوَرَعِهِمْ - أَنَّهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]. فَكُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشَرِيعَتِهِ فَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ بِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَرْضَى بِحُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي جَمِيعِ مَا يَشْجُرُ بَيْنَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَحَتَّى لَا يَبْقَى فِي قُلُوبِهِمْ حَرَجٌ مِنْ حُكْمِهِ. وَدَلَائِلُ الْقُرْآنِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ كَثِيرَةٌ»[1].

النوع الثاني: البغاة:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات: ٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى آمرًا بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ ﴾، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خطب يومًا ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى يقول: «إن ابني هذا سيد،

(١) المجموع ٢٨/ ٤٧٠.

ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، فكان كما قال ﷺ، أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: أي حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، قلت: يا رسول الله هذا نصرته مظلومًا فكيف أنصره ظالمًا؟ قال ﷺ: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه»، وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم: حدثنا معتمر قال: سمعت أبي يحدث: أن أنسًا رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، ورواه البخاري في الصلح عن مسدد، ومسلم في المغازي عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهما عن المعتمر بن سليمان عن أبيه به نحوه. وذكر سعيد بن جبير: «أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر بالصلح بينهما»، وقال السدي: «كان رجل من الأنصار يقال له عمران، كانت له امرأة تدعى أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية له لا يدخلها عليها أحد من أهلها، وإن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل كان قد خرج، فاستعان أهل الرجل فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآية، فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله تعالى».

وقوله عز وجل: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾:

أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط، وهو العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ا. هـ[1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله تعالى لم يأمر بقتال كل ظالم وكل باغ كيفما كان، ولا أمر بقتال الباغين ابتداءً، بل قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾، فلم يأمر بقتال الباغية ابتداءً **فكيف يأمر بقتال ولاة الأمر ابتداءً**. وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ قال: «سيكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع»، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا»، فقد نهى رسول الله ﷺ عن قتالهم مع إخباره أنهم يأتون أمورًا منكرة، فدل على أنه لا يجوز الإنكار عليهم بالسيف، كما يراه من يقاتل ولاة الأمر من الخوارج والزيدية والمعتزلة وطائفة من الفقهاء وغيرهم. وفي الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إنكم سترون بعدي أثرة وأمورًا تنكرونها»، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم»، فقد أخبر النبي ﷺ أن الأمراء يظلمون ويفعلون أمورًا منكرة، ومع هذا فأمرنا أن نؤتيهم الحق الذي لهم ونسأل الله الحق الذي لنا، ولم يأذن في أخذ الحق بالقتال، ولم يرخص في ترك الحق الذي لهم. وفي الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات، إلَّا مات ميتة جاهلية»، وفي لفظ: «فإنه من خرج من السلطان شبرًا فمات، مات ميتة جاهلية»، واللفظ للبخاري، وقد تقدم قوله ﷺ لما ذكر أنهم لا يهتدون بهديه ولا يستنون بسنته، قال حذيفة: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع»، فهذا أمر بالطاعة مع ظلم الأمير، وتقدم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٢١٢).

قوله ﷺ: «من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئًا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدًا عن طاعة»، وهذا نهي عن الخروج عن السلطان وإن عصى، وتقدم حديث عبادة قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا إن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان»، وفي رواية: «وأن نقول - أو نقوم - بالحق حيث ما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم».

فهذا أمر بالطاعة مع استئثار ولي الأمر، وذلك ظلم منه، ونهي عن منازعة الأمر أهله وذلك نهي عن الخروج عليه، لأن أهله هم أولو الأمر الذين أمر بطاعتهم، وهم الذين لهم سلطان يأمرون به، وليس المراد من يستحق أن يولى ولا سلطان له، ولا المتولي العادل، لأنه قد ذكر أنهم يستأثرون، فدل على أنه نهى عن منازعة ولي الأمر وإن كان مستأثرًا». ا. هـ[1].

وقال الشوكاني رحمه الله: «فالباغي هو من خرج من طاعة الإمام التي أوجبها الله على عباده، ويقدح عليه في القيام بمصالح المسلمين ودفع مفاسدهم من غير بصيرة ولا على وجه المناصحة، فإن انضم إلى ذلك المحاربة له والقيام في وجهه فقد تم البغي وبلغ إلى غايته، وصار كل فرد من أفراد المسلمين مطالبًا بمقاتلته، لقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] الآية، وليس القعود عن نصرة المحق من الورع بعد قول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ [الحجرات:٩]، والحاصل أنه إذا تبين الباغي ولم يلتبس ولا دخل في الصلح كان القعود عن مقاتلته خلاف ما أمر الله به، وأما مع اللبس فلا وجوب حتى يتبين المحق من المبطل، لكن يجب السعي في الصلح كما أمر الله به، وليس من البغي إظهار كون الإمام سلك في اجتهاده في مسألة أو مسائل طريقًا مخالفة لما يقتضيه الدليل، فإنه ما زال المجتهدون هكذا، ولكنه ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية: (٣/ ٣٩١).

ولا يظهر الشناعة عليه على رؤوس الأشهاد، بل كما ورد في الحديث أنه يأخذ بيده ويخلو به ويبذل له النصيحة ولا يذل سلطان الله، وقد قدمنا في أول كتاب السير هذا أنه لا يجوز الخروج على الأئمة وإن بغوا في الظلم أي مبلغ ما أقاموا الصلاة ولم يظهر منهم الكفر البواح، والأحاديث الواردة في هذا المعنى متواترة، ولكن على المأموم أن يطيع الإمام في طاعة الله ويعصيه في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ا. هـ[1].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى: «ليس معنى البغي مختصًّا بنوع منه دون نوع أو بطائفة دون طائفة، بل يشمل كل من حصل منه البغي سواء كان البغي منه على الإمام، أو على طائفة من المسلمين، أو على فرد من أفرادهم، فإن ذلك يندرج تحت قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]» ا. هـ[2].

النوع الثالث: قطاع الطريق واللصوص:

وهم ثلاثة أصناف:

(١) صنف يأخذ المال ولا يقتل.

(٢) وصنف يأخذ المال ويقتل.

(٣) وصنف يقتل ولا يأخذ المال.

قال بعضهم: إذا وجد صنف من هذه الأصناف فللإمام أن يقيم عليه أي عقوبات شاء، لأن الله تعالى قال: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية:

- فقد خير في عقوبتهم، وهو قول الحسن وعطاء.

---

(١) انظر: السيل الجرار: (٤/ ٥٥٦).

(٢) انظر: السيل الجرار: (٤/ ٥٥٨).

- وقال بعضهم: لكل صنف عقوبة على حدة، والاختيار أنه إن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإن قتل ولم يأخذ المال قتل، وإن قتل وأخذ المال قطع وقتل.
- وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: «إن قَتَلَ قُتِلَ، وإن قتل وأخذ المال قطع ثم صلب»، وروي عن ابن عباس نحو هذا.

الأصل الرابع:

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء، وبيان من تشبه بهم وليس منهم، وقد بيّن الله تعالى هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ٤٠]، إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ الآية. ويزيده وضوحًا ما صرحت به السُّنة في هذا الكلام الكثير البيّن الواضح للعاميّ البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدَحه لا يتفوه به إلَّا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنّف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم» ا. هـ

الشَّرح

قوله: (بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء، وبيان من تشبه بهم وليس منهم... إلخ)

قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١]:

هذه الآية دالة على فضل العلم، فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم عليه السلام إلَّا بأن أظهر علمه، فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم، لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء، لا بالعلم.

وأعلم أنه يدل على فضيلة العلم الكتاب والسنة والمنقول:

أما الكتاب فوجوه:

الأول: أن الله تعالى سمى العلم بالحكمة، ثم إنه تعالى عظم أمر الحكمة،

وذلك يدل على عظم شأن العلم.

* **بيان أنه تعالى سمى العلم بالحكمة، ما يروى عن مقاتل أنه قال: تفسر الحكمة في القرآن على أربعة أوجه:**

أحدها: مواعظ القرآن: قال في البقرة: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، يعني: مواعظ القرآن، وفي النساء: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، يعني: المواعظ، ومثلها في آل عمران.

وثانيها: الحكمة بمعنى الفهم والعلم: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، وفي لقمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]، يعني: الفهم والعلم، وفي الأنعام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وثالثها: الحكمة بمعنى النبوة: في النساء: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٥٤]، يعني: النبوة، وفي ص: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [ص: ٢٠] يعني: النبوة، وفي البقرة: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ورابعها: القرآن: في النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، وفي البقرة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وجميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع إلى العلم.

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

* **واعلم أنه تعالى ذكر الدرجات لأربعة أصناف:**

أولها: للمؤمنين من أهل بدر: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، إلى قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤].

والثانية: للمجاهدين: قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [النساء: ٩٥].

والثالثة: للصالحين: قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

الرابعة: للعلماء: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

والله فضل أهل بدر على غيرهم من المؤمنين بدرجات، وفضل المجاهدين على القاعدين بدرجات، وفضل الصالحين على هؤلاء بدرجات، ثم فضل العلماء على جميع الأصناف بدرجات، فوجب أن يكون العلماء أفضل الناس.

ويدل على ذلك أيضًا أنهم ممن يتكلم يوم القيامة ويشهد على الخلق: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

*** وقد وصف الله تعالى العلماء في كتابه بخمس مناقب:**

أحدها: الإيمان: قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

وثانيها: التوحيد والشهادة: قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وثالثها: البكاء: قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

ورابعها: الخشوع: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

وخامسها: الخشية: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال عز وجل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧]:

*** السيل ههنا العلم، شبهه الله تعالى بالماء لخمس خصال:**

أحدها: كما أن المطر ينزل من السماء، كذلك العلم ينزل من السماء.

والثاني: كما أن حياة الأرض بالمطر فحياة الخلق بالعلم.

والثالث: كما أن الزرع والنبات لا يخرج بغير المطر، كذلك الأعمال والطاعات لا تخرج بغير العلم.

والرابع: كما أن المطر فرع الرعد والبرق، كذلك العلم فإنه فرع الوعد والوعيد.

والخامس: كما أن المطر نافع وضار، كذلك العلم نافع وضار، نافع لمن عمل به، ضار لمن لم يعمل به.

قال ﷻ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]: وتدل هذه الآية على فضل العلم، حيث أُمر ﷺ بطلب الزيادة منه، وما أُمر بطلب الزيادة من شيء سوى العلم.

وقال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]: وتدل على فضل العلم وشرفه، إذ ذكر ذلك في معرض الامتنان.

وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]: وفيها دليل على فضل العلم، وشرف أهله، حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤت غيرهما. وفيها تحريض للعالم على أن يحمد الله تعالى على ما أتاه من فضله، وأن يتواضع ويعتقد أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير.

وقال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]: وَجْهُ الدَّلَالَةِ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ إِذَا قَصُرَ فَهْمُ الْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ عَلَى الْعُلَمَاءِ لَزِمَ ضَرُورَةُ مَدْحِهِمْ وَشَرَفِهِمْ.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ

﴿ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]: قال علي رضي الله عنه: «الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق»(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿ رَبَّانِيِّينَ ﴾ قال: «فقهاء معلمين»(٢).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ رَبَّانِيِّينَ ﴾ قال: «حلماء علماء حكماء»(٣).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤]: ويندرج فيها ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلَّا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»(٤).

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥]: ويندرج فيها قوله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»(٥).

وقال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧]: ويندرج فيها قوله ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»(٦).

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء: (١/ ٨٠).
(٢) انظر: الدر المنثور: (٢/ ٢٥٠).
(٣) انظر: الدر المنثور: (٢/ ٢٥٠).
(٤) رواه البخاري: (٧٣١٦)، ومسلم: (٨١٦).
(٥) رواه البخاري: (٧١)، ومسلم: (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.
(٦) رواه أبو داود: (٣٦٤١)، والترمذي: (٢٦٨٢)، وابن ماجة: (٢٢٣)، وأحمد: (٢١٧٦٣)، وابن حبان في صحيحه: (٨٨)، والبيهقي في الشعب: (١٦٩٦)، وصححه الشيخ الألباني.

وعن قيس بن كثير قال: «قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت إلَّا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم. قال رضي الله عنه: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يطلب فيها علمًا، سلك الله تعالى به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[1].

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]: وقال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وأخرج ابن جرير والبيهقي عن هلال بن يسار رضي الله عنه في قوله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾، قال: «فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن»، وأخرج ابن جرير عن الحسن وقتادة مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن أيفع الكلاعي رضي الله عنه قال: «لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه، خرج عمر رضي الله عنه ومولى له، فجعل يعد الإبل فإذا هو أكثر من ذلك، فجعل عمر رضي الله عنه يقول: الحمد لله. وجعل مولاه يقول: هذا والله من فضل الله ورحمته، فقال عمر رضي الله عنه: كذبت ليس هذا الذي يقول: ﴿ قُلْ

---

(١) رواه أبو داود: (٣٦٤١)، والترمذي: (٢٦٨٢)، وابن ماجة: (٢٢٣)، وأحمد: (٢١٧٦٣)، وابن حبان في صحيحه: (٨٨)، والبيهقي في الشعب: (١٦٩٦)، وصححه الشيخ الألباني.

بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾».

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، قال: «من الأموال والحرث والأنعام»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «وفضل العلم على المال يعلم من وجوه:

أحدها: أن العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الملوك والأغنياء.

والثاني: أن العلم يحرس صاحبه، وصاحب المال يحرس ماله.

والثالث: أن المال تذهبه النفقات، والعلم يزكو على النفقة.

الرابع: أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله، والعلم يدخل معه قبره.

الخامس: أن العلم حاكم على المال، والمال لا يحكم على العلم.

السادس: أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر، والعلم النافع لا يحصل إلَّا للمؤمن.

السابع: أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة.

الثامن: أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها، والمال لا يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال، بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه، فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها.

التاسع: أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء، والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية، فالمال يدعوها إلى صفات الملوك، والعلم يدعوها إلى صفات العبيد.

---

(١) انظر: الدر المنثور: (٤/ ٣٦٨).

العاشر: أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها، والمال حجاب بينها وبينها.

الحادي عشر: أن غنى العلم أجل من غنى المال، فإن غنى المال غنى بأمر خارجي عن حقيقة الإنسان، لو ذهب في ليلة أصبح فقيرًا معدمًا، وغنى العلم لا يخشى عليه الفقر، بل هو في زيادة أبدًا فهو الغني العالي حقيقة، كما قيل:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغني العالي عن الشيء لا به

الثاني عشر: أن المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعله عبدًا له، كما قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار والدرهم»، الحديث، والعلم يستعبده لربه وخالقه، فهو لا يدعوه إلَّا إلى عبودية الله وحده.

الثالث عشر: أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة، وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة.

الرابع عشر: أن قيمة الغني ماله، وقيمة العالم علمه، فهذا متقوم بماله فإذا عدم ماله عدمت قيمته وبقي بلا قيمة، والعالم لا تزول قيمته، بل هي في تضاعف وزيادة دائمًا.

الخامس عشر: أن جوهر المال من جنس جوهر البدن، وجوهر العلم من جنس جوهر الروح، كما قال يونس بن حبيب: «علمك من روحك ومالك من بدنك، والفرق بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن».

السادس عشر: أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضًا من علمه، والغني العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به، يود لو أن له علمه بغناه أجمع.

السابع عشر: أنه ما أطاع الله احد قط إلَّا بالعلم، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

الثامن عشر: أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله، وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله.

التاسع عشر: أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيرًا، فإنه معشوق النفوس، فإذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت في هلاكه، كما هو الواقع، وأما غنى العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به، والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه.

العشرون: أن اللذة الحاصلة من غنى إما لذة وهمية وإما لذة بهيمية، فإن صاحبه التذ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذة وهمية خيالية، وإن التذ بإنفاقه في شهواته فهي لذة بهيمية، وأما لذة العلم فلذة عقلية روحانية وهي تشبه لذة الملائكة وبهجتها، وفرق ما بين اللذتين.

الحادي والعشرون: أن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشره في جمع المال الحريص عليه، وتنقصه والإزراء به، ومطبقون على تعظيم الشره في جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبته ورؤيته بعين الكمال.

الثاني والعشرون: أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال، المعرض عن جمعه، الذي لا يلتفت إليه ولا يجعل قلبه عبدًا له، ومطبقون على ذم الزاهد في العلم الذي لا يلتفت إليه ولا يحرص عليه.

الثالث والعشرون: أن المال يمدح صاحبه بتخليه منه وإخراجه، والعلم إنما يمدح بتحليه به واتصافه به.

الرابع والعشرون: أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن، فهو حزين قبل حصوله، خائف بعد حصوله، وكلما كان أكثر كان الخوف أقوى، وغنى العلم مقرون بالأمن والفرح والسرور.

الخامس والعشرون: أن الغني بماله لا بد أن يفارقه غناه، فيتعذب ويتألم بمفارقته، والغني بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم، فلذة الغنى

بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم، ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم.

السادس والعشرون: أن استلذاذ النفس وكمالها بالغنى استكمال بعارية مؤداة، فتجملها بالمال تجمل بثوب مستعار لا بد أن يرجع إلى مالكه يومًا ما، وأما تجملها بالعلم وكمالها به فتجمل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها.

السابع والعشرون: أن الغنى بالمال هو عين فقر النفس، والغنى بالعلم هو عين غنى النفس، فهو غناها الحقيقي، فغناها بعلمها هو الغنى، وغناها بمالها هو الفقر.

الثامن والعشرون: أن من قدم وأكرم لماله إذا زال ماله زال تقديمه وإكرامه، ومن قدم وأكرم لعلمه لا يزداد إلَّا تقديمًا وإكرامًا.

التاسع والعشرون: أن تقديم الرجل لماله هو عين ذمه، فإنه نداء علية بنقصه، وأنه لولا ماله لكان مستحقًّا للتأخر والإهانة، وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فإنه عين كماله إذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به، لا بأمر خارج عن ذاته.

الثلاثون: أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هي حال تجدده فقط، وأما حال دوامه فإما أن تذهب تلك اللذة، وإما أن تنقص. ويدل عليه أن الطبع يبقى طالبًا لغنًى آخر حريصًا عليه، فهو يحاول تحصيل الزيادة دائمًا، فهو في فقر مستمر غير منتقض، ولو ملك خزائن الأرض، ففقره وطلبه وحرصه باق عليه، فإنه أحد المنهومين اللذين لا يشبعان، فهو لا يفارقه ألم الحرص والطلب. وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان فإن لذته في حال بقائه مثلها في حال تجدده بل أزيد، وصاحبها وإن كان لا يزال طالبًا للمزيد حريصًا عليه فطلبه وحرصه مستصحب للذة الحاصل ولذة المرجو المطلوب ولذة الطلب

وابتهاجه وفرحه به» ا. هـ[١].

وقوله: (وبيان من تشبه بهم وليس منهم....)

اعلم رحمك الله أن اليهود:

- كانوا يأمرون غيرهم باتباع التوراة ثم إنهم خالفوها، لأنهم وجدوا فيها ما يدل على صدق محمد ﷺ، ثم إنهم ما آمنوا به.

- وتغافلوا عن أعمال البر مع حثهم الناس عليها، وذلك مستقبح في العقول، إذ المقصود من أمر الناس بذلك إما النصيحة أو الشفقة، وليس من العقل أن يشفق الإنسان على غيره أو أن ينصح غيره ويهمل نفسه. فحذرهم الله تعالى من ذلك بأن قرعهم بهذا الكلام.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء خطباء من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم»[٢].

وَرُوِيَ عَنْ هِشَامٍ الدَّسْتَوَائِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «قَرَأْتُ فِي كِتَابٍ بَلَغَنِي أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ عِيسَى: تَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا وَأَنْتُمْ تُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَلَا تَعْمَلُونَ لِلْآخِرَةِ وَأَنْتُمْ لَا تُرْزَقُونَ فِيهَا إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَإِنَّكُمْ عُلَمَاءَ السَّوْءِ؛ الْأَجْرَ تَأْخُذُونَ وَالْعَمَلَ تُضَيِّعُونَ، يُوشِكُ رَبُّ الْعَمَلِ أَنْ يَطْلُبَ عَمَلَهُ، وَتُوشِكُونَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنَ الدُّنْيَا الْعَرِيضَةِ إِلَى ظُلْمَةِ الْقَبْرِ وَضِيقِهِ، اللهُ نَهَاكُمْ عَنِ الْخَطَايَا كَمَا أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ، كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ سَخِطَ رِزْقَهُ وَاحْتَقَرَ مَنْزِلَتَهُ؟ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ اتَّهَمَ اللهَ فِيمَا قَضَى لَهُ؟ فَلَيْسَ يَرْضَى شَيْئًا أَصَابَهُ، كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ دُنْيَاهُ آثَرُ عِنْدَهُ

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة: (١/ ١٣٨) باختصار يسير.

(٢) رواه أحمد: (١٢٢٣٢)، والطبراني في الأوسط (٨٢٢٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٨٦)، والضياء (٢٦٤٦) وقال: «إسناده صحيح» ا. هـ، وحسنه الألباني.

مِنْ آخِرَتِهِ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلُ رَغْبَةً؟ كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ مَصِيرُهُ إِلَى آخِرَتِهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى دُنْيَاهُ وَمَا يَضُرُّهُ أَشْهَى إِلَيْهِ - أَوْ قَالَ: أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا يَنْفَعُهُ؟ كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَطْلُبُ الْكَلَامَ لِيُخْبِرَ بِهِ وَلَا يَطْلُبُهُ لِيَعْمَلَ بِهِ؟»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد توراثت البشارات بصحة نبوة محمد ﷺ في الكتب المتقدمة، ولكن سلطوا عليها التأويلات فأفسدوها، كما أخبر سُبْحَانَهُ عنهم من التحريف والتبديل والكتمان.

فالتحريف تحريف المعاني بالتأويلات التي لم يردها المتكلم بها.

والتبديل تبديل لفظ بلفظ آخر.

والكتمان جحده.

وهذه الأدواء الثلاثة منها غيرت الأديان والملل.

وإذا تأملت دين المسيح وجدت النصارى إنما تطرقوا إلى إفساده بالتأويل بما لا يكاد يوجد قط مثله في شيء من الأديان، ودخلوا إلى ذلك من باب التأويل، وكذلك زنادقة الأمم جميعهم إنما تطرقوا إلى إفساد ديانات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بالتأويل، ومن بابه دخلوا وعلى أساسه بنوا وعلى نقطه خطوا.

البواعث المؤدية إلى التأويل:

والمتأولون أصناف عديدة، بحسب الباعث لهم على التأويل، وبحسب تصور أفهامهم، ووفورها.

وأعظمهم توغلًا في التأويل الباطل من فسد قصده وفهمه، فكلما ساء قصده وقصر فهمه، كان تأويله أشد انحرافًا.

---

(١) رواه الدارمي: (٣٦٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء: (٦/ ٢٧٩).

فمنهم: من يكون تأويله لنوع هوى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق.

ومنهم: من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخفت عليه الحق.

ومنهم: من يكون تأويله لنوع هدى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق.

ومنهم: من يجتمع له الأمران: الهوى في القصد والشبهة في العلم.

نتائج التأويل:

وبالجملة فافتراق أهل الكتابين، وافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، إنما أوجبه التأويل.

وإنما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل وصفين والحرة وفتنة ابن الزبير وهلم جرا بالتأويل.

وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والباطنية والإسماعلية والنصيرية من باب التأويل، فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلَّا وسببها التأويل.

فإن محنته إما من المتأولين، وإما أن يسلط عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل، وخالفوا ظاهر التنزيل، وتعللوا بالأباطيل.

فما الذي أراق دماء بني جذيمة وقد أسلموا غير التأويل، حتى رفع رسول الله ﷺ يديه وتبرأ إلى الله من فعل المتأول بقتلهم وأخذ أموالهم.

وما الذي أوجب تأخر الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية عن موافقة رسول الله ﷺ غير التأويل، حتى اشتد غضبه لتأخرهم عن طاعته، حتى رجعوا عن ذلك التأويل.

وما الذي سفك دم أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ظلمًا وعدوانًا، وأوقع الأمة فيما أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل.

وما الذي سفك دم علي رضي الله عنه وابنه الحسين وأهل بيته رضي الله تعالى عنهم غير التأويل.

وما الذي أراق دم عمار بن ياسر وأصحابه غير التأويل.

وما الذي أراق دم ابن الزبير وحجر بن عدي وسعيد بن جبير وغيرهم من سادات الأمة غير التأويل.

وما الذي أريقت عليه دماء العرب في فتنة أبي مسلم غير التأويل.

وما الذي جرد الإمام أحمد بين العقابين وضرب السياط حتى عجت الخليقة إلى ربها تعالى غير التأويل.

وما الذي قتل الإمام أحمد بن نصر الخزاعي وخلد خلقًا من العلماء في السجون حتى ماتوا غير التأويل.

وما الذي سلط سيوف التتار على دار الإسلام حتى ردوا أهلها غير التأويل.

وهل دخلت طائفة الإلحاد من أهل الحلول والاتحاد إلَّا من باب التأويل. وهل فتح باب التأويل إلَّا مضادة ومناقضة لحكم الله في تعليمه عباده البيان الذي امتن الله في كتابه على الإنسان بتعليمه إياه، فالتأويل بالألغاز والأحاجي والأغلوطات أولى منه بالبيان والتبيين.

وهل فرق بين دفع حقائق ما أخبرت به الرسل عن الله وأمرت به بالتأويلات الباطلة المخالفة له وبين رده وعدم قبوله، ولكن هذا رد جحود ومعاندة، وذاك رد خداع ومصانعة.

قال أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمى بالكشف عن مناهج الأدلة وقد ذكر التأويل وجنايته على الشريعة، إلى أن قال: «﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وهؤلاء أهل الجدل والكلام، وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيرًا مما ظنوه ليس على

ظاهره، وقالوا: إن هذا التأويل هو المقصود به، وإنما أمر الله به في صورة المتشابه ابتلاء لعباده واختبارا لهم، ونعوذ بالله من سوء الظن بالله، بل نقول: إن كتاب الله العزيز إنما جاء معجزًا من جهة الوضوح والبيان، فما أبعد من مقصد الشارع من قال فيما ليس بمتشابه: إنه متشابه، ثم أول ذلك المتشابه بزعمه وقال لجميع الناس: إن فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل، مثل ما قالوه في آية الاستواء على العرش وغير ذلك مما قالوا إن ظاهره متشابه»، ثم قال: «وبالجملة فأكثر التأويلات التي زعم القائلون بها أنها المقصود من الشرع إذا تأملت وجدت ليس يقوم عليها برهان».

وقال: «ومثال من أول شيئًا من الشرع وزعم أن ما أوله هو الذي قصده الشرع وصرح بذلك التأويل للجمهور؛ مثال من أتى إلى دواء قد ركبه طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو الأكثر، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء المركب الأعظم لرداءة مزاج كان به ليس يعرض إلَّا للأقل من الناس، فزعم أن بعض الأدوية التي صرح باسمه الطبيب الأول في ذلك الدواء العام المنفعة المركب لم يرد به ذلك الدواء التي جرت العادة في اللسان أن يدل بذلك الاسم عليه، وإنما أراد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه الذي قصده الطبيب، وقال للناس: هذا هو الذي قصده الطبيب الأول. فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه ذلك المتأول ففسدت به أمزجة كثير من الناس.

فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجة الناس عن ذلك الدواء المركب فراموا إصلاحه بأن أبدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول، فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول.

فجاء ثالث فتأول في أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني، فعرض من ذلك للناس نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين.

فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة فعرض منه للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمة.

فلما طال الزمن بهذا الدواء المركب الأعظم وسلط الناس التأويل على أدويته وغيروها وبدلوها عرض منه للناس أمراض شتى، حتى فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس.

وهذه هي حال هذه الفرق الحادثة في الشريعة مع الشريعة، وذلك أن كل فرقة منهم تأولت في الشريعة تأويلًا غير التأويل الذي تأولته الفرقة الأخرى، وزعمت أنه الذي قصده صاحب الشرع، حتى تمزق الشرع كل ممزق وبعد جدًّا عن موضوعه الأول، ولما علم صاحب الشرع أن مثل هذا يعرض ولا بد في شريعته، قال: «ستفترق أمتي على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلَّا واحدة»، يعني: بالواحدة التي سلكت ظاهر الشرع ولم تؤوله.

وأنت إذا تأملت ما عرض في هذه الشريعة في هذا الوقت من الفساد العارض فيها من قبل التأويل تبينت أن هذا المثال صحيح:

وأول من غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج ثم المعتزلة بعدهم ثم الأشعرية ثم الصوفية ثم جاء أبو حامد فطم الوادي على القرى».

وذكر كلامًا بعد ذلك يتعلق بكتب أبي حامد، ليس لنا غرض في حكايته» ا. هـ[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

---

(١) انظر: إعلام الموقعين: (٤/ ٢٧٥ - ٢٧٧)، والصواعق المرسلة: (٢/ ٤١٤ - ٤١٧)، وكتاب درء تعارض العقل والنقل: (٦/ ٢٢٠ - ٢٢٢).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذه خمسة أمور:

أحدها: لبس الحق بالباطل، وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل.

الثاني: كتمان الحق.

الثالث: إخفاؤه، وهو قريب من كتمانه.

الرابع: تحريف الكلم عن مواضعه، وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه.

الخامس: ليّ اللسان به ليلبس على السامع اللفظ المنزل بغيره.

وهذه الأمور إنما ارتكبوها لأغراض لهم دعتهم إلى ذلك.

فإذا عادوا الرسول وجحدوا نبوته، وكذبوه، وقاتلوه، فهم إلى أن يجحدوا نعته وصفته، ويكتموا ذلك ويزيلوه عن مواضعه، ويتأولوه على غير تأويله أقرب بكثير، وهكذا فعلوا» ا. هـ[1].

وقوله: (ويزيده وضوحًا ما صرحت به السُّنة في هذا الكلام الكثير البيّن الواضح للعاميّ البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدَحه لا يتفوه به إلَّا زنديق أو مجنون، وصار من

---

(١) انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: (ص: ٤٩).

أنكره وعاداه وصنّف في التحذير منه، والنهي عنه هو الفقيه العالم)

اعلم رحمك الله تعالى: أن المعارضين للوحي بآرائهم خمس طوائف:

الطائفة الأولى: طائفة عارضته بعقولهم في الخبريات[١] وقدمت عليه العقل، فقالوا لأصحاب الوحي: لنا العقل، ولكم النقل.

الطائفة الثانية: طائفة عارضته بآرائهم وقياساتهم، فقالوا لأهل الحديث لكم الحديث: ولنا الرأي والقياس.

الطائفة الثالثة: طائفة عارضته بحقائقهم وأذواقهم، وقالوا: لكم الشريعة ولنا الحقيقة[٢].

الطائفة الرابعة: طائفة عارضته بسياساتهم وتدبيرهم، فقالوا: أنتم أصحاب الشريعة ونحن أصحاب السياسة.

الطائفة الخامسة: طائفة عارضته بالتأويل الباطن[٣]، فقالوا: أنتم أصحاب الظاهر ونحن أصحاب الباطن.

الجواب والرد على هذه الطوائف:

الجواب على الطائفة الأولى- القائلين بتقديم العقل على النقل:

أن: «القول بتقديم الإنسان لمعقوله علي النصوص النبوية قول لا ينضبط: وذلك لأن أهل الكلام والفلسفة الخائضين المتنازعين فيما يسمونه عقليات، كل منهم يقول: إنه يعلم بضرورة العقل أو بنظره ما يدعي الآخر أن المعلوم بضروة العقل أو بنظره نقيضه، وهذا من حيث الجملة معلوم. فالمعتزلة ومن اتبعهم من الشيعة يقولون: إن أصلهم المتضمن نفي الصفات

---

(١) النصوص التي فيها أخبار عن الله تعالى.

(٢) كالصوفية.

(٣) كالرافضة والإسماعيلية.

والتكذيب بالقدر - **الذي يسمونه التوحيد والعدل** - معلوم بالأدلة العقلية القطعية.

ومخالفوهم من أهل الإثبات يقولون: إن نقيض ذلك معلوم بالأدلة القطعية العقلية.

بل الطائفتان ومن ضاهاهما يقولون: إن علم الكلام المحض هو ما أمكن علمه بالعقل المجرد بدون السمع، كمسألة الرؤية والكلام وخلق الأفعال. وهذا هو الذي يجعلونه قطعيًّا ويؤثمون المخالف فيه.

وكل من طائفتي النفي والإثبات فيهم من الذكاء والعقل والمعرفة ما هم متميزون به على كثير من الناس، وهذا يقول: إن العقل الصريح دل على النفي، والآخر يقول: العقل الصريح دل على الإثبات.

وهم متنازعون في المسائل التي دلت عليها النصوص، كمسائل الصفات والقدر، وأما المسائل المولدة كمسألة الجوهر الفرد وتماثل الأجسام وبقاء الأعراض وغير ذلك، ففيها من النزاع بينهم ما يطول استقصاؤه، وكل منهم يدعي فيها القطع العقلي.

ثم كل من كان عن السنة أبعد كان التنازع والاختلاف بينهم في معقولاتهم أعظم، فالمعتزلة أكثر اختلافًا من متكلمة أهل الإثبات، وبين البصريين والبغداديين منهم من النزاع ما يطول ذكره، والبصريون أقرب إلى السُّنة والإثبات من البغداديين، ولهذا كان البصريون يثبتون كون البارئ سميعًا بصيرًا مع كونه حيًّا عليمًا قديرًا، ويثبتون له الإرادة، ولا يوجبون الأصلح في الدنيا، ويثبتون خبر الواحد والقياس، ولا يؤثمون المجتهدين وغير ذلك، ثم بين المشايخة والحسينية - **أتباع أبي الحسن البصري** - من التنازع ما هو معروف.

وأما الشيعة فأعظم تفرقًا واختلافًا من المعتزلة لكونهم أبعد عن السُّنة منهم، حتى قيل: إنهم يبلغون اثنتين وسبعين فرقة.

وأما الفلاسفة فلا يجمعهم جامع، بل هم أعظم اختلافًا من جميع طوائف المسلمين واليهود والنصارى، والفلسفة التي ذهب إليها الفارابي وابن سينا إنما هي فلسفة المشائين أتباع أرسطو صاحب التعاليم، وبينه وبين سلفه من النزاع والاختلاف ما يطول وصفه، ثم بين أتباعه من الخلاف ما يطول وصفه.

وأما سائر طوائف الفلاسفة فلو حكي اختلافهم في علم الهيئة وحده لكان أعظم من اختلاف كل طائفة من طوائف أهل القبلة، وعلم الهيئة علم رياضي حسابي هو من أصح علومهم، فإذا كان هذا اختلافهم فيه فكيف باختلافهم في الطبيعيات أو المنطق؟ فكيف بالإلهيات؟

واعتبر هذا بما ذكره أرباب المقالات عنهم في العلوم الرياضية والطبيعية، كما نقله الأشعري عنهم في كتابه مقالات الإسلاميين، وما ذكره القاضي أبو بكر عنهم في كتابه الدقائق، فإن في ذلك من الخلاف عنهم أضعاف أضعاف ما ذكره الشهرستاني وأمثاله ممن يحكي مقالاتهم. فكلامهم في العلم الرياضي - **الذي هو أصح علومهم العقلية** - قد اختلفوا فيه اختلافًا لا يكاد يحصى، ونفس الكتاب الذي اتفق عليه جمهورهم - **وهو كتاب المجسطي لبطليموس** - فيه قضايا كثيرة لا يقوم عليها دليل صحيح، وفيه قضايا ينازعه غيره فيها، وفيه قضايا مبنية على أرصاد منقولة عن غيره تقبل الغلط والكذب.

وكذلك كلامهم في الطبيعيات في الجسم، وهل هو مركب من المادة والصورة، أو الأجزاء التي لا تنقسم، أو ليس بمركب لا من هذا ولا من هذا؟

وكثير من حذاق النظار حار في هذه المسائل حتى أذكياء الطوائف كأبي الحسين البصري وأبي المعالي الجويني وأبي عبد الله بن الخطيب، حاروا في مسألة الجوهر الفرد، فتوقفوا فيها تارة، وإن كانوا قد يجزمون بها أخرى، فإن الواحد من هؤلاء تارة يجزم بالقولين المتناقضين في كتابين أو كتاب واحد، وتارة يحار فيها، مع دعواهم أن القول الذي يقولونه قطعي برهاني عقلي لا يحتمل النقيض.

وهذا كثير في مسائل الهيئة ونحوها من الرياضيات وفي أحكام الجسم وغيره من الطبيعيات فما الظن بالعلم الإلهي؟

وأساطين الفلسفة يزعمون أنهم لا يصلون فيه إلى اليقين، وإنما يتكلمون فيه بالأولى والأحرى والأخلق.

وأكثر الفضلاء العارفين بالكلام والفلسفة بل وبالتصوف، الذين لم يحققوا ما جاء به الرسول تجدهم فيه حيارى، كما أنشد الشهرستاني في أول كتابه لما قال: «قد أشار علي من إشارته غنم وطاعته حتم أن أجمع له من مشكلات الأصول ما أشكل على ذوي العقول، ولعله استسمن ذا ورم ونفخ في غير ضرم، لعمري:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلَّا واضعًا كف حائر ... على ذقن أو قارعًا سن نادم

وأنشد أبو عبد الله الرازي في غير موضع من كتبه، مثل كتاب أقسام اللذات، لما ذكر أن هذا العلم أشرف العلوم وأنه ثلاث مقامات:

العلم بالذات والصفات والأفعال، وعلى كل مقام عقدة.

فعلم الذات عليه عقدة: هل الوجود هو الماهية أو زائد في الماهية؟

وعلم الصفات عليه عقدة: هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟

وعلم الأفعال عليه عقدة: هل الفعل مقارن للذات أو متأخر عنها؟

ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب، أو ذاق من هذا الشراب؟

ثم أنشد:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن:

اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وكان ابن أبي الحديد البغدادي من فضلاء الشيعة المعتزلة المتفلسفة، وله أشعار في هذا الباب، كقوله:

فيك يا أغلوطة الفكر ... حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ... ربحت إلَّا أذى السفر
فلحى الله الأُلى زعموا ... أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا ... خارج عن قوة البشر

هذا مع إنشاده:

وحقك لو أدخلتني النار قلت ... للذين بها: قد كنت ممن يحبه
وأفنيت عمري في علوم كثيرة ... وما بغيتي إلَّا رضاه وقربه
أما قلتم: من كان فينا مجاهدا ... سيكرم مثواه ويعذب شربه
أما رد شك ابن الخطيب وزيغه ... وتمويهه في الدين إذ جل خطبه
وآية حب الصب أن يعذب الأسى ... إذا كان من يهوى عليه يصبه

وابن رشد الحفيد يقول في كتابه الذي صنفه ردًّا على أبي حامد في كتابه المسمى تهافت الفلاسفة، فسماه تهافت التهافت: ومن الذي قاله في الإلهيات ما يعتد به، وأبو الحسن الآمدي في عامة كتبه هو واقف في المسائل

الكبار يزيف حجج الطوائف ويبقى حائرًا واقفًا، والخونجي المصنف في أسرار المنطق الذي سمى كتابه كشف الأسرار، يقول لما حضره الموت: «أموت ولم أعرف شيئًا إلَّا أن الممكن يفتقر إلى الممتنع»، ثم قال: «الافتقار وصف سلبي، أموت ولم أعرف شيئًا»، حكاه عنه التلمساني، وذكر أنه سمعه منه وقت الموت.

ولهذا تجد أبا حامد، مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف، ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف، ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث، ومات وهو يشتغل في صحيح البخاري.

والحذاق يعلمون أن تلك الطريقة التي يحيل عليها لا توصل إلى المطلوب. ولهذا لما بنى على قول النفاة من سلك هذه الطريق، كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض، وصاحب «خلع النعلين» والتلمساني وأمثالهم، وصلوا إلى ما يعلم فساده بالعقل والدين، مع دعواهم أنهم أئمة المحققين.

ولهذا تجد أبا حامد في مناظرته للفلاسفة إنما يبطل طرقهم ولا يثبت طريقة معينة، بل هو كما قال: «نناظرهم - **يعني: مع كلام الأشعري** - تارة بكلام المعتزلة، وتارة بكلام الكرامية، وتارة بطريق الواقفة»، وهذه الطريق هي الغالب عليه في منتهى كلامه.

وأما الطريقة النبوية السنية السلفية المحمدية الشرعية فإنما يناظرهم بها من كان خبيرًا بها وبأقوالهم التي تناقضها، فيعلم حينئذ فساد أقوالهم بالمعقول الصريح المطابق للمنقول الصحيح.

وهكذا كل من أمعن في معرفة هذه الكلاميات والفلسفيات التي تعارض بها النصوص من غير معرفة تامة بالنصوص ولوازمها وكمال المعرفة بما فيها وبالأقوال التي تنافيها، فإنه لا يصل إلى يقين يطمئن إليه وإنما تفيده الشك والحيرة.

بل هؤلاء الفضلاء الحذاق الذي يدعون أن النصوص عارضها من معقولاتهم ما يجب تقديمه، تجدهم حيارى في أصول مسائل الإلهيات، حتى مسألة وجود الرب تعالى وحقيقته حاروا فيها حيرة أوجبت أن يتناقض هذا، كتناقض الرازي، وأن يتوقف هذا كتوقف الآمدي، ويذكرون عدة أقوال يزعمون أن الحق ينحصر فيها، وهي كلها باطلة.

وقد حكي عن طائفة من رؤوس أهل الكلام أنهم كانوا يقولون بتكافؤ الأدلة، وأن الأدلة قد تكافأت من الجانبين، حتى لا يعرف الحق من الباطل، ومعلوم أن هذا إنما قالوه فيما سلكوه هم من الأدلة.

وقد حكي لي أن بعض الأذكياء، وكان قد قرأ على شخص هو إمام بلده ومن أفضل أهل زمانه في الكلام والفلسفة، وهو ابن واصل الحموي، أنه قال: «أضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي وأقابل بين أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء».

ولهذا انتهي أمره إلى كثرة النظر في الهيئة، لكونه تبين له فيه من العلم ما لم يتبين له في العلوم الإلهية.

ولهذا تجد كثيرًا من هؤلاء لما لم يتبين له الهدى في طريقة نكص على عقبيه، فاشتغل باتباع شهوات الغي في بطنه وفرجه، أو رياسته وماله، ونحو ذلك، لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبه وينشرح له صدره. وفي الحديث المأثور عن النبي ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الفتن».

وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النبوية السلفية يجتمع فيهم هذا وهذا: اتباع شهوات الغي ومضلات الفتن، فيكون فيهم من الضلال والغي بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله.

ولهذا أمرنا الله أن نقول في كل صلاة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون».

وكان السلف يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل: فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فكيف إذا اجتمع في الرجل الضلال والفجور؟

ولو جمعت ما بلغني في هذا الباب عن أعيان هؤلاء، كفلان وفلان، لكان شيئًا كثيرًا، وما لم يبلغني من حيرتهم وشكهم أكثر وأكثر. وذلك لأن الهدى هو فيما بعث الله به رسله، فمن أعرض عنه لم يكن مهتديًا، فكيف بمن عارضه بما يناقضه وقدم مناقضه عليه؟

قال الله تعالى لما أهبط آدم: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعلم بما فيه، أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»، ثم قرأ هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ [طه: ١٢٤]: يتناول الذكر الذي أنزله، وهو الهدى الذي جاءت به الرسل، كما قال تعالى في آخر الكلام: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه: ١٢٦]: أي تركت اتباعها والعمل بما فيها. فمن طلب الهدى بغير القرآن ضل، ومن اعتز بغير الله ذل، وقد قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي حديث علي رضي الله عنه الذي رواه الترمذي ورواه أبو نعيم من عدة طرق عن علي عن النبي ﷺ لما قال: «إنها ستكون فتنة؟» قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدي

في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: التنبيه على أنه لو سوغ للناظرين أن يعرضوا عن كتاب الله تعالى ويعارضوه بآرائهم ومعقولاتهم، لم يكن هناك أمر مضبوط يحصل لهم به علم ولا هدى، فإن الذين سلكوا هذه السبيل كلهم يخبر عن نفسه بما يوجب حيرته وشكه، والمسلمون يشهدون عليه بذلك، فثبت بشهادته وإقراره على نفسه وشهادة المسلمين الذين هم شهداء الله في الأرض، أنه لم يظفر من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه، بيقين يطمئن إليه، ولا معرفة يسكن بها قلبه.

والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولًا صريحًا يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات، فقالوا: إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول.

فصار ما يدعى معارضته للكتاب من المعقول ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح: إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة، وإما بظهور تناقضهم ظهورًا لا ارتياب فيه، وإما بمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه.

والناس إذا تنازعوا في المعقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى، بل يرجع في ذلك إلى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد يغير فطرتها ولا هوى، فامتنع حينئذ أن يعتمد على ما يعارض الكتاب من الأقوال التي يسمونها معقولات، وإن كان ذلك قد قالته طائفة كبيرة لمخالفة طائفة كبيرة لها.

ولم يبق إلَّا أن يقال: إن كل إنسان له عقل فيعتمد على عقل نفسه، وما وجده معارضًا لأقوال الرسول ﷺ من رأيه خالفه، وقدم رأيه على نصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومعلوم أن هذا أكثر ضلالًا واضطرابًا.

فإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلي الغاية، وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات، ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب، بل إما إلى حيرة وارتياب، وإما إلي اختلاف بين الأحزاب، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء ومعرفة ما سلكوه من العقليات؟

فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلَّا بما هو **جهل بسيط** أو **جهل مركب**:

فالأول: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، والثاني: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وأصحاب القرآن والإيمان في نور على نور، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشُّورى: ٥٢ - ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥]، إلى آخر الآية، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فأهل الجهل البسيط: منهم أهل الشك والحيرة من هؤلاء المعارضين للكتاب المعرضين عنه.

وأهل الجهل المركب: أرباب الاعتقادات الباطلة التي يزعمون أنها

عقليات، وآخرون ممن يعارضهم يقول: المناقض لتلك الأقوال هو العقليات.

ومعلوم أنه حينئذ يجب فساد أحد الاعتقادين أو كليهما، والغالب فساد كلا الاعتقادين لما فيهما من الإجمال والاشتباه، وأن الحق يكون فيه تفصيل يبين أن مع هؤلاء حقًّا وباطلًا، ومع هؤلاء حقًّا وباطلًا، والحق الذي مع كل منهما هو الذي جاء به الكتاب الذي يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، والله أعلم» ا. هـ[1].

الجواب على الطائفة الثانية: القائلين بتقديم الرأي والقياس على الحديث:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «قال أحمد: يحذر المتكلم في الفقه هذين الأصلين: المجمل والقياس. وقال: أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس.

يريد بذلك ألا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق، قبل النظر فيما يخصه ويقيده، ولا يعمل بالقياس قبل النظر في دلالة النصوص هل تدفعه؟ فإن أكثر خطأ الناس تمسكهم بما يظنونه من دلالة اللفظ والقياس، فالأمور الظنية لا يعمل بها حتى يبحث عن المعارض بحثًا يطمئن القلب إليه، وإلا أخطأ من لم يفعل ذلك.

وهذا هو الواقع في المتمسكين بالظواهر والأقيسة؛ ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الإعراض عن تفسير النبي ﷺ وأصحابه طريق أهل البدع، وله في ذلك مصنف كبير.

وكذلك التمسك بالأقيسة مع الإعراض عن النصوص والآثار طريق أهل البدع؛ ولهذا كان كل قول ابتدعه هؤلاء قولًا فاسدًا، وإنما الصواب من أقوالهم ما وافقوا فيه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، سماه عامًّا وهو مطلق في الأحوال،

---

(١) انظر: درء التعارض: (١/ ٨٩).

يعمها على طريق البدل، كما يعم قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة:٣]، جميع الرقاب، لا يعمها كما يعم لفظ الولد للأولاد. ومن أخذ بهذا لم يأخذ بما دل عليه ظاهر لفظ القرآن، بل أخذ بما ظهر له مما سكت عنه القرآن، فكان الظهور لسكوت القرآن عنه، لا لدلالة القرآن على أنه ظاهر، فكانوا متمسكين بظاهر من القول لا بظاهر القول، وعمدتهم عدم العلم بالنصوص التي فيها علم بما قيد، وإلا فكل ما بينه القرآن وأظهره فهو حق، بخلاف ما يظهر للإنسان لمعنى آخر غير نفس القرآن يسمى ظاهر القرآن، كاستدلالات أهل البدع، من المرجئة والجهمية والخوارج والشيعة» ا. هـ[1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم.

فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقًا أخرى؛ مثل المعقول والقياس والرأي والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة والمكاشفة والمخاطبة والوجد والذوق ونحو ذلك، وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها:

فهم أكمل الناس عقلًا؛ وأعدلهم قياسًا، وأصوبهم رأيًا، وأسدهم كلامًا، وأصحهم نظرًا، وأهداهم استدلالًا، وأقومهم جدلًا، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهامًا، وأحدهم بصرًا ومكاشفة، وأصوبهم سمعًا ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجدًا وذوقًا.

وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل.

فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلًا، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم

---

(١) انظر: الإيمان: (ص: ١٣).

في قرون وأجيال، وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك متمتعين.

وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، وهذا يعلم تارة بموارد النزاع بينهم وبين غيرهم، فلا تجد مسألة خولفوا فيها إلَّا وقد تبين أن الحق معهم، وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجوعهم إلى غيرهم، أو بشهادتهم على مخالفيهم بالضلال والجهل، وتارة بشهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض، وتارة بأن كل طائفة تعتصم بهم فيما خالفت فيه الأخرى وتشهد بالضلال على كل من خالفها أعظم مما تشهد به عليهم، فأما شهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض: فهذا أمر ظاهر معلوم بالحس والتواتر لكل من سمع كلام المسلمين، لا تجد في الأمة عُظِّم أحد تعظيمًا أعظم مما عظموا به، ولا تجد غيرهم يعظم إلَّا بقدر ما وافقهم فيه، كما لا ينقص إلَّا بقدر ما خالفهم، حتى إنك تجد المخالفين لهم كلهم وقت الحقيقة يقر بذلك، كما قال الإمام أحمد: «آية ما بيننا وبينهم يوم الجنائز».

فإن الحياة بسبب اشتراك الناس في المعاش يعظم الرجل طائفته، فأما وقت الموت فلا بد من الاعتراف بالحق من عموم الخلق، ولهذا لم يعرف في الإسلام مثل جنازته: مسح المتوكل موضع الصلاة عليه فوجد ألف ألف وستمائة ألف؛ سوى من صلى في الخانات والبيوت، وأسلم يومئذ من اليهود والنصارى عشرون ألفًا، وهو إنما نبل عند الأمة باتباع الحديث والسنة.

وكذلك الشافعي وإسحاق وغيرهما إنما نبلوا في الإسلام باتباع أهل الحديث والسنة، وكذلك البخاري وأمثاله إنما نبلوا بذلك، وكذلك مالك والأوزاعي والثوري وأبو حنيفة وغيرهم إنما نبلوا في عموم الأمة وقُبل قولهم لما وافقوا فيه الحديث والسنة، وما تكلم فيمن تكلم فيه منهم إلَّا بسبب

المواضع التي لم يتفق له متابعتها من الحديث والسنة، إما لعدم بلاغها إياه أو لاعتقاده ضعف دلالتها أو رجحان غيرها عليها» ا. هـ[١].

وقال أيضًا: «لكن قد تنفرد طائفة بالصواب عمن يناظرها من الطوائف، كأهل المذاهب الأربعة قد يوجد لكل واحد منهم أقوال انفرد بها، وكان الصواب الموافق للسنة معه دون الثلاثة، لكن يكون قوله قد قاله غيره من الصحابة والتابعين وسائر علماء الأمة، بخلاف ما انفردوا به ولم ينقل عن غيرهم فهذا لا يكون إلَّا خطأ. وكذلك أهل الظاهر كل قول انفردوا به عن سائر الأمة فهو خطأ وأما ما انفردوا به عن الأربعة وهو صواب فقد قاله غيرهم من السلف» ا. هـ[٢].

منهج أهل الحديث في النظر والاستدلال:

أولًا: الاعتصام بالكتاب والسنة:

حصر التلقي لأحكام الدين أصولهِ وفروعه في هذا المصدر، وأن يُرد الخلاف إليهما عند التنازع، وأن لا يعارضا بشيءٍ من المعارضات، لا بمعقول، ولا رأيٍ ولا قياس، ولا ذوق، ولا وجد، ولا مكاشفة ولا منام، ولا غير ذلك.

ثانيًا: الرجوع لفهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنة:

لأنهم أحق الناس بمعرفة مراد الله ورسوله، وقد عاصروا التنزيل، وأخذوا العلم مباشرةً من النبي ﷺ ولازموه، وخبروا أقواله وأفعاله، وقد أثنى الله عليهم في كتابه الكريم بالخيرية والأفضلية، فواجبٌ على من جاء بعدهم الاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم، والسير على منهاجهم إلى يوم القيامة.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٤٧/ ١٠).

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية: (٥/ ١٧٨).

ثالثًا: أنهم يلتزمون النص ويطرحون التأويل:

فالأصل عند أهل السنة هو الأخذ بظاهر الألفاظ، وما دلت عليه من الحقيقة، فالقرآن نزل بلغة العرب، فمن أراد فهمه فمن جهة لسانهم يفهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَعْرِفَةَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَمَا أَرَادَهُ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ هُوَ أَصْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالسَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ» ا. هـ[1].

وأما الألفاظ التي بين الرسول ﷺ المراد بها، سواءٌ كان من الكتاب أو السنة، فلا يحتاج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم، والواجب في هذه الحال هو الرجوع إلى بيان الله عز وجل ورسوله ﷺ لمعرفة ذلك، ومن أمثلة ذلك اسم الإيمان والإسلام والكفر والنفاق والصلاة والصيام والحج ونحوها، فالنبي ﷺ قد بين المراد من هذه الألفاظ بيانًا شافيًا كافيًا. ومن فروع هذا الأصل اقتصار أهل السنة والجماعة على استعمال الألفاظ الشرعية في تقرير مسائل الاعتقاد، ونبذهم للألفاظ والمصطلحات الحادثة التي تولدت نتيجة إقحام علم الكلام والمنطق والفلسفة في العلوم الشرعية.

رابعًا: لا يستعملون الألفاظ المجملة التي تحتمل أكثر من معنى:

أما إذا استعملها غيرهم من أهل البدع فإنهم يستفصلون منهم عما أرادهُ باستعمالها، فما كان فيها من حق أقروهُ، وما دلت عليه من باطل ردوهُ.

خامسًا: الجمع بين أطراف الأدلة:

وذلك بأن يرجع إلى القرآن كلهِ، وإلى السنة كُلها، ثم ينظر في فهم الصحابة وما نقل عنهم قبل تقرير أي مسألةٍ أو حكم، وأن لا يضرب كتاب الله بعضهُ ببعض، ويسلك مسلك اليهود الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، والذين وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨].

---

(١) انظر: الفتاوى: (١٧/ ٣٥٥).

منهج الاستدلال عند أهل البدع:

أولًا: عدم حصر الاستدلال على الدليل الشرعي: حتى في العقائد، فإنهم يستدلون بالمنطق والفلسفة، ويسمونها بالعقليات، كما يستدلون بالحكايات والأساطير، وما لا أصل لهُ، وبالأحاديث الموضوعة، والآثار المكذوبة، وآراء الرجال في الدين، وما يسمى بالكشف والذوق.

ثانيًا: لا يراعون قواعد الاستدلال المعتبرة عند أهل السنة: فيتبعون المتشابه، ولا يردونه إلى المحكم، ويستدلون بالمجمل ولا يردونه إلى المُبين، ولا يجمعون بين نصوص الوعد والوعيد ولا النفي والإثبات، ولا العموم والخصوص.

ثالثًا: لا يعتمدون تفسير الصحابة والسلف، ولا فهمهم للنصوص: ولا آثارهم وعملهم وهديهم، بل يُجانبونهم ويتَّبِعُون غير سبيل المؤمنين.

رابعًا: يردون ما لا يوافق أصولهم وأهواءهم من نصوص الشرع.

خامسًا: يعتمدون التأويل في العقيدة: ويقولون على الله بغير علم ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

سادسًا: يخوضون فيما نهى الله عنه من نصوص القدر والصفات والسمعيات.

سابعًا: يقوم منهجهم على المِراء والخصومات والجدل بالباطل.

ثامنًا: ليس لهم عناية بالإسناد: لتعويلهم على الأهواء وآراء الرجال.

الجواب على الطائفة الثالثة: ويأتي في بيان الأصل الخامس، بإذن الله تعالى.

الجواب على الطائفة الرابعة- الذين فصلوا بين الشرع والسياسة:

أشار شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى، في «مجموع الفتاوى»، إلى

تاريخ هذا الانفصام المبتدع بين **الشرع والسياسة**.

فقال رحمه الله تعالى: «فلمَّا صارت الخلافة في ولد العباس، واحتاجوا إلى سياسة الناس، وتقلد لهم القضاء مَن تقلده من فقهاء العراق، ولم يكن ما معهم من العلم كافيًا في السياسة العادلة؛ احتاجوا حينئذٍ إلى وضع ولاية المظالم، وجعلوا ولاية حرب غير ولاية شرع، وتعاظم الأمر في كثير من أمصار المسلمين، حتَّى صار يقال: الشرع والسياسة، وهذا يدعو خصمه إلى الشرع، وهذا يدعو إلى السياسة، سوغ حاكمًا أَنْ يحكم بالشرع والآخر بالسياسة.

والسبب في ذلك أنَّ الذين انتسبوا إلى الشرع قصَّروا في معرفة السنة، فصارت أمور كثيرة؛ إذا حكموا ضيعوا الحقوق، وعطلوا الحدود، حتَّى تسفك الدماء، وتؤخذ الأموال، وتستباح المحرمات، والذين انتسبوا إلى السياسة صاروا يسوسون بنوعٍ من الرأي من غير اعتصام بالكتاب والسنة، وخيرهم الذي يحكم بلا هوى، ويتحرَّى العدل، وكثير منهم يحكمون بالهوى، ويحابون القوي ومَن يرشوهم، ونحو ذلك» ا. هـ[1].

وقال أيضًا رحمه الله: «يوجد في كثير من خطاب بعض أتباع الكوفيين، وفي تصانيفهم، إذا احتجَّ عليهم مُحتجٌّ بِمَن قتلَهُ النَّبِيُّ ﷺ أو أمر بقتله؛ كقتله اليهودي الذي رضَّ رأس الجارية، وكإهداره لدمِ السَّابَّةِ التي سَبَّتْهُ - **وكانت معاهدة** -، وكأمره بقتل اللوطي - **ونحو ذلك** -؛ قالوا: هذا يعمله سياسةً!

فيقال لهم: هذه السياسة؛ إنْ قلتم: هي مشروعة لنا؛ فهي حقٌّ، وهي سياسة شرعية.

وإن قلتم: ليست مشروعة لنا؛ فهذه مخالفة للسنة.

---

(١) انظر: الفتاوى: (٢٠/ ٣٩٢ - ٣٩٣).

ثم قول القائل - بعد -: هذا سياسة؛ إمَّا أَنْ يريد أنَّ الناسَ يساسون بشريعة الإسلام، أم هذه السياسة من غير شريعة الإسلام.

فإنْ قيل بالأول؛ فذلك من الدين، وإنْ قيل بالثاني؛ فهو الخطأ!

ولكن منشأ هذا الخطأ: أنَّ مذهب الكوفيين فيه تقصير عن معرفة سياسة رسول الله ﷺ، وسياسة خلفائه الراشدين.

وقد ثبت في الصحيح عنه أنَّه قال: «إنَّ بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء» ا. هـ[1].

وقال أيضًا: «وقد جاء حديث آخر يوافق هنا، روي موقوفًا على ابن عباس ومرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «يأتي على الناس زمان يستحل فيه خمسة أشياء بخمسة أشياء: يستحلون الخمر بأسماء يسمونها بها، والسحت بالهدية، والقتل بالرهبة، والزنا بالنكاح، والربا بالبيع». وهذا الخبر صدق، فإن الثلاثة المقدم ذكرها قد بينت، وأما استحلال السحت الذي هو العطية للوالي والحاكم والشافع ونحوهم باسم الهدية فهو أظهر من أن يذكر. وأما استحلال القتل باسم الإرهاب الذي يسميه ولاة الظلم سياسة وهيبة وأبهة الملك ونحو ذلك فظاهر أيضًا. وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر أنه سيكون من يستحل الخمور والربا والسحت والزنا وغيرها بأسماء أخرى من النبيذ والبيع والهدية والنكاح ومن يستحل الحرير والمعازف فمن المعلوم أن هذا بعينه هو فعل أصحاب الحيل، فإنهم يعمدون إلى الأحكام فيعلقونها بمجرد اللفظ ويزعمون أن الذي يستحلونه ليس بداخل في لفظ الشيء المحرم مع أن العقل يعلم أن معناه معنى الشيء المحرم وهو المقصود به. وهذا بين في الحيل الربوية ونكاح المحلل ونحو ذلك، فإنها تستحل باسم البيع والقرض والنكاح وهي ربا أو سفاح في المعنى،

(١) انظر: الفتاوى: (٢٠/ ٣٩١ - ٣٩٢).

فإن الرجل إذا قال للرجل وله عليه ألف تجعلها إلى سنة بألف ومائتين فقال: بعني هذه السلعة بالألف التي في ذمتك ثم ابتعها مني بألف ومائتين، فهذه صورة البيع وفي الحقيقة باعه الألف الحالة بألف ومائتين مؤجلة، فإن السلعة قد تواطأوا على عودها إلى ربها ولم يأتيا ببيع مقصود بتة، وكذلك نكاح المحلل وإن أتوا بلفظ الإنكاح وبالولي والشاهدين والمهر فإنهم قد تواطأوا على أن تقيم معه ليلة أو ساعة ثم تفارقه وأنها لا تأخذ منه شيئًا بل تعطينه. وهذا هو سفاح امرأة تستأجر رجلًا ليفجر بها لحاجتها إليها.

فتبديل الناس للأسماء لا يوجب تبديل الأحكام فإنها أسماء سموها وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، كتسمية الأوثان آلهة فإن خصائص الإلهية لما كانت معدومة فيها لم يكن لتلك التسمية حقيقة، وكذلك خصائص البيع والنكاح وهي الصفات والنعوت الموجودة في هذه العقود في العادة إذا كان بعضها منتفيًا عن هذا العقد لم يكن بيعًا ولا نكاحًا، فإذا كانت صفات الخمر والربا والسفاح ونحو ذلك من المحرمات موجودة في شيء كان محرمًا وإن سماه الناس بغير ذلك الاسم لتغيير أتوا به في ظاهره وإن أفرد باسم. كما أن المنافق يدخل في اسم الكافر في الحقيقة، فإن كان في بعض الأحكام في الظاهر قد يجري عليه حكم المؤمن، ومن علم ربا الجاهلية الذي نزل فيه القرآن كيف كان لم يشك في أن كثيرًا من هذه المعاملات هي ربا الجاهلية، فإن الرجل كان يكون له على رجل دين من ثمن مبيع أو نحوه فإذا حل عليه قال له: إما أن توفي وإما أن تربي، فإن لم يوفه وإلا زاده في المال ويزيده الغريم في الأجل. ولهذا من علم حقيقة الدين من الأئمة قطع بالتحريم فيما كان مقصوده هذا.

قال أحمد بن القسم: سألت أبا عبد الله -يعني: أحمد بن حنبل- عن الربا الذي هو الربا نفسه الذي فيه تغليظ؟ قال: أما البين فهو أن يكون لك دين إلى أجل فتزيد على صاحبه تحتال في ذلك لا تريد إلَّا الزيادة عليه، والشيء

مما يكال أو يوزن يبيعه بمثله، كما في حديث أبي سعيد: «أو يتيمًا فردًا»، قال: وهو في النسيئة أبين.

وبالجملة من تأمل ما أخبر به النبي ﷺ ناهيًا عنه مما سيكون في الأمة من استحلال المحرمات، بأن يسلبوا عنها الاسم الذي حرمت به وما فعلته اليهود علم أن هذين من مشكاة واحدة، وأن ذلك تصديق قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، وعلم بالضرورة أن أكثر الحيل من هذا الجنس لا سيما مع قوله ﷺ: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلون محارم الله بأدنى الحيل» والله الهادي إلى الحق» ا. هـ[1].

قال العلامة الفنجفيري رحمه الله في الرد على المبتدعة والقبورية:

«وها أنا في زمان تبدلت الشريعة، وجعلوا العبادة ذريعة للمعيشة، ووضعوا الألفاظ الصحيحة للنية الردية، فاستحلوا الرشوة باسم الهدية، والقتل بالرهبة، والزنى بالنكاح، والربا بالمنافع، والمغني بالحادي، والمطرب بالقوال، والمداهن بالمصلح، والخداعة بالسياسة، والكتمان بالمصلحة، والشرك بالله العظيم بتعظيم الأولياء الكرام، والعبادة للقبور والشيوخ بالتعظيم لهم، والجحد لصفات الله تعالى بالتنزيه، وإثبات الصفات له تعالى بالتجسيم، والبدعة بالسُّنة، فبدلوا دين الله تعالى وشرائعه، وحرفوا الكلم عن مواضعه،: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]» ا. هـ[2].

---

(١) انظر: الفتاوى الكبرى: (٦/ ٤٢ - ٤٤).

(٢) انظر: جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية: (٢/ ٦١٩).

أهم الفروق بين السياسة الشرعية والسياسة البدعية الجاهلية:

م	السياسة الشرعية	السياسة البدعية الجاهلية
١	الاعتصام فيها بالكتاب والسنة والإجماع	عمل برامج حزبية
٢	الثبات على المبادئ	التفلت والروغان حتى مما يخطه البنان وينطق به اللسان
٣	الإيمان بجميع ما أنزل الله على رسوله	الإيمان ببعض الكتاب إن وجد، والكفر عمليًّا بجله
٤	الغايات والوسائل شرعية	الغاية تبرر الوسيلة
٥	حماية الدين، والمحافظة عليه، والغيرة على محارم الله، ورعاية حقوق المسلمين	تحقيق المصالح الخاصة وإن تعارضت مع مصلحة الدين والوطن
٦	التحاكم إلى الكتاب والسنة	استبدالهما بما يسمى بالعمل السياسي
٧	الوفاء بالعهود والمواثيق	الغدر والخيانة
٨	النصح للرعية	الغش للرعية والأتباع
٩	رفع المعاناة عن الأمة بقدر الطاقة	العمل على زيادة المعاناة بما يعرف بالثورات
١٠	تقليد المناصب يعتمد على الدين والتقوى والأهلية	يعتمد على الولاء للحزب
١١	حماية العقيدة، والأخلاق، والسلوك	رعاية الفساد العقدي وعدم المبالاة بتحسين الأخلاق والسلوك
١٢	المحاسبة الدقيقة للولاة والمسؤولين	التساهل والتفريط في محاسبة المقصرين خاصة إن كانوا من المقربين
١٣	الحرص على المال العام	الخوض في المال العام من غير رقيب
١٤	العمل على إحياء السنة وإماتة البدعة	رعاية البدع والمبتدعين، ومحاربة السنن وأهلها
١٥	العناية بأهل العلم والفضل	تعظيم الأصاغر من المنتسبين للعلم
١٦	رفع راية الجهاد المشروع وحماية الثغور	حمل السلاح على جماعة المسلمين
١٧	العناية بالحسبة والأمر والنهي	ترك الحبل على الغارب، بل معاقبة من يتصدى لمنكر

الأصل الخامس

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«بيان الله سبحانه للأولياء، وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعدائه المنافقين والفجار، ويكفي في هذا آية: «آل عمران» وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية [آل عمران: ٣١]، والآية التي في «المائدة» وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآية [المائدة: ٥٤]، وآية في سورة «يونس» وهي قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ الآية [يونس: ٦٢ - ٦٣] ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم، وأنه من هداة الخلق، وحفاظ الشرع، إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل، ومن اتبعه فليس منهم! ولا بد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم! ولا بد من ترك الإيمان والتقوى، فمن تقيد بالإيمان والتقوى، فليس منهم! يا ربنا نسألك العفو والعافية، إنك سميع الدعاء» ا. هـ.

الشرح

اعلم رحمك الله: أن معرفة أولياء الرحمن من أولياء الشيطان إنما يؤخذ من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا

فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

قال ابن منظور رحمه الله تعالى: «(الولي) من أَسماء الله تعالى: الوَلِيُّ هو الناصِرُ، وقيل: المُتَوَلِّي لأُمور العالم والخلائق القائمُ بها.

ومن أَسمائه عز وجل: الوالي، وهو مالِكُ الأَشياء جميعها المُتَصَرِّفُ فيها. قال ابن الأَثير: وكأَن الوِلاية تُشعر بالتَّدْبير والقُدرة والفِعل، وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطلق عليه اسم الوالي.

قال ابن سيده: وَلِيَ الشيءَ ووَلِيَ عليه وِلايةً ووَلايةً، وقيل: الوِلاية الخُطة كالإِمارة، والوَلايةُ المصدر.

وقال ابن السكيت: الوِلاية بالكسر السلطان، والوَلايةُ والولاية النُّصرة، يقال: هم عليَّ وَلايةٌ أَي مجتمعون في النُّصرة.

وقال سيبويه: الوَلاية بالفتح المصدر، والوِلاية بالكسر الاسم، مثل الإِمارة والنِّقابة، لأَنه اسم لما تولَّيته وقُمْت به، فإِذا أَرادوا المصدر فتحوا.

قال ابن بري: وقرئ: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، بالفتح والكسر، وهي بمعنى النُّصْرة.

قال أَبو الحسن: الكسر لغة، وليست بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، قال الفراء: يريد: ما لكم من مَوارِيثهم من شيء، قال: فكسْرُ الواو ههنا من وِلايتهم أَعجبُ إِليَّ من فتحها، لأَنها إِنما تفتح أَكثرَ ذلك إِذا أُريد بها النصرة، قال: وكان الكسائي يفتحها ويذهب بها إِلى النصرة.

قال الأَزهري: ولا أَظنه علم التفسير.

قال الفراء: ويختارون في وَلِيته وِلاية الكسر، قال: وسمعناها بالفتح

---

(١) رواه البخاري: (٦١٣٧).

وبالكسر في الولاية في معنييهما جميعًا، وأنشد:

دَعِيهِم فهمْ أَلبٌ عليَّ وِلايةٌ   وحَفْرُهُمُ إنْ يَعْلمُوا ذاك دائبُ»

ا. هـ[1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والولي: مشتق من الولاء وهو القرب، كما أن العَدُوَّ من العَدْوِ وهو البعد.

فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته» ا. هـ. انظر: الفتاوى: (١١/ ٦٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذي يظهر لي من ذلك أن ولاية الله تعالى نوعان: **عامة وخاصة:**

فالعامة: ولاية كل مؤمن، فمن كان مؤمنًا لله تقيًا كان له وليًا وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه، ولا يمتنع في هذه الولاية أن يقول: «أنا وليٌّ لله إن شاء الله»، كما يقول: «أنا مؤمن إن شاء الله».

والولاية الخاصة: إن علم من نفسه أنه قائم لله بجميع حقوقه، مؤثر له على كل ما سواه في جميع حالاته، قد صارت مراضي الله ومحابه هي همه ومتعلق خواطره، يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه، وإن سخط الخلق، فهذا إذا قال: «أنا وليٌّ لله» كان صادقًا. ا. هـ[2].

«يَدُل عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(١) انظر: لسان العرب: (١٥/ ٤٠٥).
(٢) انظر: بدائع الفوائد: (٤/ ١٦٤).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ مَعَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللهِ بِقَدْرِ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ، كَمَا مَعَهُ مِنْ ضِدِّ ذَلِكَ بِقَدْرِ فُجُورِهِ، إِذِ الشَّخْصُ الْوَاحِدُ تَجْتَمِعُ فِيهِ الْحَسَنَاتُ الْمُقْتَضِيَةُ لِلثَّوَابِ وَالسَّيِّئَاتُ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْعِقَابِ، حَتَّى يُمْكِنَ أَنْ يُثَابَ وَيُعَاقَبَ، وَهَذَا قَوْل جَمِيعِ أَصْحَابِ رَسُول اللهِ ﷺ وَأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْل السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ» ا. هـ(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم، الداعون إليه، المحاربون لمن خرج عنه؛ وأولياء الشيطان المتلبسون بما يحبه وليهم قولًا وعمًلا، يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه، فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطاني ومؤذن الشيطان وإخوان الشياطين، ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور علمت أنه من أوليائه. فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاثة مواطن: في صلاته ومحبته للسنة وأهلها ونفرته عنهم، ودعوته إلى الله ورسله، وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة، فزنه بذلك، لا تزنه بحال ولا كشف ولا خارق ولو مشى على الماء وطار في الهواء» ا. هـ(٢).

أقسام أولياء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ولكن ذلك ينقسم إلى: **عام**: وهم المقتصدون، **وخاص**: وهم السابقون.

وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصديقين، وقد ذكر النبي ﷺ القسمين في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله: من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي

(١) انظر: الفتاوى: (٥/ ١٥٥).
(٢) انظر: كتاب الروح: (ص: ٢٦٥).

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعل ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته»(١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض يفعلون ما أوجب الله عليهم، ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ولا الكف عن فضول المباحات.

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات. فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب، حبًّا تامًّا، كما قال تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»، يعني: الحب المطلق، كقوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]، أي أنعم عليهم الإنعام المطلق التام، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات، يتقربون بها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فكانت أعمالهم كلها عبادات لله، فشربوا صرفًا كما عملوا له صرفًا. والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم فلا يعاقبون عليه، ولا يثابون عليه، فلم يشربوا صرفًا، بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا» ا. هـ(٢).

---

(١) ا. هـ. انظر: أمراض القلب وشفاؤها: (ص: ٤٥).
(٢) انظر: أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: (١/ ٢٧).

أفضل أولياء الله عز وجل:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾ [الأحزاب: ٧ - ٨]. وأفضل أولي العزم: محمد ﷺ، خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب لواء الحمد وصاحب الحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة والفضيلة، الذي بعثه الله بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خلقًا وأول الأمم بعثًا، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه - **يعني: يوم الجمعة** - فهدانا الله له، الناس لنا تبع فيه، غدًا لليهود وبعد للنصارى»، وقال ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»، وقال ﷺ: «آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: أنا محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك».

وفضائله ﷺ وفضائل أمته كثيرة. ومن حين بعثه الله جعله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه: فلا يكون وليًّا لله إلَّا من آمن به وبما جاء به واتبعه باطنًا وظاهرًا، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال الحسن البصري رحمه الله: «ادعى قوم

أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية محنة لهم»، وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء الله.

وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله، فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء لله، وأنه لا يدخل الجنة إلَّا من كان منهم، بل يدعون أنهم أبناؤه وأحباؤه، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ [المائدة: ١٨] الآية، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١ - ١١٢]» ا. هـ[١].

وقال رحمه الله تعالى: «وَلَا يَكُونُ مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ أَفْضَلُ مِنْ الصَّحَابَةِ. وَأَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَى أَعْظَمُهُمْ مَعْرِفَةً بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتِّبَاعًا لَهُ، كَالصَّحَابَةِ الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُ الْأُمَّةِ فِي مَعْرِفَةِ دِينِهِ وَاتِّبَاعِهِ. وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ أَكْمَلُ مَعْرِفَةً بِمَا جَاءَ بِهِ وَعَمَلًا بِهِ فَهُوَ أَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، إذْ كَانَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلَ الْأُمَمِ وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَفْضَلُهُمْ أَبُو بَكْرٍ» ا. هـ[٢].

خصال أولياء الله تعالى:

الخصلة الأولى: التقوى:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «اسم التقوى إذا أفرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور.

قال طَلْقُ بن حبيب: «التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو رحمة الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عذاب الله» ا. هـ[٣].

---

(١) انظر: أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: (١/ ١٠).
(٢) انظر: أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: (١/ ٣٢).
(٣) انظر: الفتاوى: (٢٠/ ١٣٢).

قال ابن جزي رحمه الله تعالى: «فضائلها المستنبطة من القرآن وهي خمس عشرة:

الهدى: كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

والنصرة: لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [النحل: ١٢٨].

والولاية: لقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

والمحبة: لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

والمغفرة: لقوله: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

والمخرج من الغم، والرزق من حيث لا يحتسب: لقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ الآية [الطلاق: ٢].

وتيسير الأمور: لقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وغفران الذنوب وإعظام الأجور: لقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

وتقبل الأعمال: لقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والفلاح: لقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

والبشرى: لقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣].

ودخول الجنة: لقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤].

والنجاة من النار: لقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريم: ٧٢]» ا. هـ[1].

الخصلة الثانية: أنهم لا يبتغون بأعمالهم إلَّا وجه الله ومرضاته:

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل: (١/ ٦٨)

وقال تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الليل: ١٩ - ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وأخرج البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال له: «وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً»(١).

---

(١) رواه البخاري: (٢٥٩٣)، ومسلم: (١٦٢٨)، واللفظ له.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلَّا الله خالصًا من قلبه»(١).

عن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من خرج حاجًّا يريد وجه الله فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفع فيمن دعا له»(٢).

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الغزو غزوان: فأما من ابتغى وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد، فإن نومه ونبهه أجر كله، وأما من غزا فخرًا ورياء وسمعة، وعصى الإمام، وأفسد في الأرض، فإنه لم يرجع بالكفاف»(٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله عز وجل؛ لا يتعلمه إلَّا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة». «عرف الجنة»: يعني: ريحها(٤).

عن بديل العقيلي قال: «من أراد بعلمه وجه الله أقبل الله عليه بوجهه، وأقبل بقلوب العباد إليه، ومن عمل لغير الله تعالى صرف عنه وجهه وصرف بقلوب العباد عنه»(٥).

قلت: ومصداقه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وعن الأوزاعي يقول: «بلغني أنه ما وعظ رجل قومًا لا يريد به وجه الله

---

(١) رواه البخاري: (٩٩).
(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء: (٧/ ٢٣٥).
(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء: (٥/ ٢٢٠).
(٤) رواه أبو داود: (٣٦٦٤)، وابن ماجة: (٢٥٢)، وأحمد: (٨٤٣٨)، وابن حبان في صحيحه: (٧٨)، والحاكم وصححه: (٢٨٨)، وصححه الألباني.
(٥) رواه أبو نعيم في الحلية: (٣/ ٦٢).

إلَّا زلت عنه القلوب، كما زل الماء عن الصفا»[١].

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله»، وفي رواية: «ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله»[٢].

وعن الوليد بن أبي الوليد أبي عثمان المدائني أن عقبة بن مسلم حدثه: أن شفيًّا الأصبحي حدثه: «أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت له: أسألك بحق وبحق لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكث قليلًا، ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق، فمسح وجهه فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق، ومسح وجهه فقال: أفعل لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا معه في هذا البيت ما معه أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه فأسندته طويلًا، ثم أفاق فقال حدثني رسول الله ﷺ: «أن الله ﷻ إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب! قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية: (٦/ ١٤٢).

(٢) رواه ابن ماجه: (٤١٨٩)، وأحمد: (٦١١٤)، والبيهقي في الشعب: (٨٣٠٥)، وصححه الشيخ الألباني.

له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إن فلانٌ قارئ، فقد قيل ذاك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب! قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، ويقول الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل ذلك»، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: «يا أبا هريرة! أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»، فقال الوليد أبو عثمان المدائني: فأخبرني عقبة بن مسلم: أن شفيًّا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا.

قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: أنه كان سيافًا لمعاوية، فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بِشَرٍّ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥]»[(١)].

الخصلة الثالثة: أنهم لا يرون الفضائل والخيرات التي عملوها من أنفسهم بل من فضل الله ورحمته:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ

(١) رواه الترمذي: (٢٣٨٢) واللفظ له، والحاكم: (١٥٢٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» ا. هـ، وابن خزيمة: (٢٤٨٢)، وابن حبان في صحيحه: (٤٠٨)، وصححه الألباني، قلت: وأصله في صحيح مسلم.

فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، إِذَا قَالَ حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ -أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأقر بتوحيد الربوبية المتضمن لانفراده سُبْحَانَهُ

(١) رواه البخاري: (٦٣٢٣).

بالخلق وعموم المشيئة ونفوذها، وتوحيد الإلهية المتضمن لمحبته وعبادته وحده لا شريك له والاعتراف بالعبودية المتضمن للافتقار من جميع الوجوه إليه سُبْحَانَهُ، ثم قال: «وأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ»، فتضمن ذلك التزام شرعه وأمره ودينه، وهو عهده الذي عهد إلى عباده، وتصديق وعده وهو جزاؤه وثوابه فتضمن التزام الأمر والتصديق بالموعود وهو الإيمان والاحتساب، ثم لما علم أن العبد لا يوفي هذا المقام حقه الذي يصلح له تعالى علق ذلك باستطاعته وقدرته التي لا يتعداها، فقال: «ما استطعت» أي ألتزم ذلك بحسب استطاعتي وقدرتي، ثم شهد المشهدين المذكورين - **وهما مشهد القدرة والقوة، ومشهد التقصير من نفسه** - فقال: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ»، فهذه الكلمة تضمنت المشهدين معًا، ثم أضاف النعم كلها إلى وليها وأهلها والمبتدي بها، والذنب إلى نفسه وعمله، فقال: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي»، فأَنْتَ المحمود والمشكور الذي له الثناء كله والإحسان كله ومنه النعم كلها، فلك الحمد كله ولك الثناءُ كله ولك الفضل كله، وأنا المذنب المسيء المعترف بذنبه المقر بخطئه» ا. هـ[1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمؤمن يرى أن عمله لله؛ لأنه إياه يعبد، وأنه بالله؛ لأنه إياه يستعين، فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكورًا؛ لأنه إنما عمل له ما عمل لله، كما قال الأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه؛ فإنه قد علم أن اللّه هو المانّ عليه، إذ استعمله في الإحسان، وأن المنة لله عليه، وعلى ذلك الشخص، فعليه هو أن يشكر الله، إذ يسره لليسرى، وعلى ذلك أن يشكر اللّه، إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أو نصر، أو غير ذلك» ا. هـ[2].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يُدْخِلَ

---

(١) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين: (١/ ١٦٤ - ١٦٥).

(٢) انظر: الحسنة والسيئة: (ص: ٩١).

أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ؛ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ»(١).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الْقِدْحِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الْفُوقِ»(٢).

ومصداقه في القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «ذُكِرَ لِي أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ -وَلَمْ أَسْمَعْهُ مِنْهُ: «إِنَّ فِيكُمْ قَوْمًا يَعْبُدُونَ وَيَدْأَبُونَ- يعني: يُعْجِبُونَ النَّاسَ وَتُعْجِبُهُمْ أَنْفُسُهُمْ- يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ»(٣).

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٤٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان: أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله نعمة منه بغى وطغى وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [القصص: ٧٨]، أي: لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيص لما خولني هذا، قال قتادة: على علم عندي: على

---

(١) رواه البخاري: (٥٦٧٣)، ومسلم: (٢٨١٦).

(٢) رواه البخاري: (٥٠٥٨)، ومسلم: (١٠٦٤).

(٣) رواه أحمد: (١٢٩٩٥)، وأبو يعلى في مسنده: (٤٠٦٦)، والضياء في المختارة: (٢٣٩٤)، وقال: «إسناده صحيح» ا. هـ، وابن أبي عاصم في السنة: (٩٤٥)، وصححه الألباني.

خبر عندي، قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩] أي ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة، أي اختبار» ا.هـ(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: العارف لا يرى له على أحد حقًّا، ولا يشهد له على غيره فضلًا؛ ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره. وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء. وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي ... وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا» ا. هـ(٢).

الخصلة الرابعة: أنهم يشاهدون عيوب أنفسهم ويحاسبونها:

قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فإذا تدبر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله، فشكر الله، فزاده الله من فضله عملًا صالحًا، ونعمًا يفيضها عليه.

وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلَّا من نفسه بذنوبه استغفر وتاب، فزال عنه سبب الشر، فيكون العبد دائمًا شاكرًا مستغفرًا، فلا يزال الخير يتضاعف له، والشر يندفع عنه، كما كان النبي ﷺ يقول في خطبته: «الحمد للّه» فيشكر الله،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٧١).

(٢) انظر: المستدرك على فتاوى ابن تيمية: (١/ ١٢٢).

ثم يقول: «نستعينه ونستغفره» نستعينه على الطاعة، ونستغفره من المعصية، ثم يقول: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا» فيستعيذ به من الشر الذي في النفس، ومن عقوبة عمله، فليس الشر إلَّا من نفسه ومن عمل نفسه، فيستعيذ الله من شر النفس؛ أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا، ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ومن عقوبات عمله، فاستعانه على الطاعة وأسبابها، واستعاذ به من المعصية وعقابها.

فعِلْمُ العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه يوجب له هذا وهذا» ا. هـ[1].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «اليقين أن لا تتهم مولاك في كل ما أصابك» ا. هـ[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمشاهدة المنّة توجب لَهُ المحبّةَ، والحمدَ، والشّكرَ لولي النّعم والإحسان، ومطالعةُ عيب النّفس والعمل توجب لَهُ الذلَّ، والانكسار، والافتقار، والتوبة فِي كلّ وقت، وأن لَا يرى نفسه إلَّا مفلسًا.

وأقرب باب دخل مِنْهُ العبد عَلَى الله تَعَالَى هُوَ الإفلاس، فَلَا يرى لنفسه حالًا، وَلَا مقامًا، وَلَا سببًا يتعلّق به، وَلَا وسيلة مِنْهُ يمنُّ بِهَا، بل يدخل عَلَى الله تَعَالَى من باب الافتقار الصرف، والإفلاس المحض، دخولَ مَن قَدْ كسر الفقرُ والمسكنةُ قلبَه، حتّى وصلت تِلْكَ الكسرة إِلَى سُوَيدائه؛ فانصدع، وشملته الكسرة من كلّ جهاته، وشهد ضرورته إِلَى ربّه عَزَّوَجَلَّ وكمال فاقته وفقره إِلَيْهِ، وأن فِي كلّ ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامّة، وضرورة كاملة إِلَى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأنّه إن تخلَّى عَنْهُ طرفة عين؛ هلك، وخسر خسارة لَا تُجبر؛ إلَّا أَنْ يعود الله تَعَالَى عَلَيهِ، ويتداركه برحمته، وَلَا طريق إِلَى الله تَعَالَى أقرب من العبوديّة، وَلَا حاجب أغلظ من الدعوى.

---

(١) انظر: الحسنة والسيئة: (ص: ٣٢).

(٢) انظر: حلية الأولياء: (٧/ ٩).

والعبوديّة مدارها عَلَى قاعدتين هما أصلها: **حبّ كامل وذلّ تام.**

ومنشأ هذين الأصلين عَنْ ذينك الأصلين المتقدّمين، وهما:

مشاهدة المنّة الَّتِي تورث المحبّة.

ومطالعة عيب النَّفْس والعمل الَّتِي تورث الذلّ التّام.

وَإِذَا كَانَ العبد قَدْ بنى سلوكه إِلَى الله تَعَالَى عَلَى هذين الأصلين؛ لَمْ يظفر عدوّه بِهِ إِلَّا عَلَى غِرَّة وغِيْلَة، وَمَا أسرع مَا ينعشه الله ﷻ ويجبره، ويتداركه برحمته» ا. هـ[1].

«ثمَّ يحاسِبُ نفسَهُ عَلَى الغَفْلَةِ، فإنْ كَانَ قَدْ غَفِلَ عمَّا خُلِقَ لَهُ؛ تدارَكَهُ بالذِّكْرِ والإقبالِ عَلَى اللهِ تَعَالَى.

ثمَّ يحاسِبُها بِمَا تكلَّمَ بِهِ، أَوْ مَشَتْ إِلَيْهِ رجلاهُ، أَوْ بَطَشَتْ يداهُ، أَوْ سمعَتْهُ أُذناهُ: مَاذَا أَرَادَتْ بهذا؟ ولمَنْ فَعَلَتْهُ؟ وعلى أَيِّ وجهٍ فَعَلَتْهُ؟

فالأَوَّلُ: سؤالٌ عن الإخلاصِ.

والثَّاني: سؤالٌ عن المُتابَعَةِ.

وقال تَعَالَى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢]، قال تَعَالَى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦ - ٧]، وقال تَعَالَى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٨].

فَإِذَا سُئِلَ الصَّادِقُونَ وحُوسِبوا عَلَى صِدْقِهم فَمَا الظَّنُّ بالكاذِبينَ؟

فَإِذَا كَانَ العبْدُ مسؤولًا ومُحاسَبًا عَلَى كلِّ شيءٍ حتّى عَلَى سَمْعِهِ وبَصَرِهِ وقَلْبِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ فَهُوَ حقيقٌ أَنْ يُحاسِبَ نفسَهُ قبلَ أَنْ يُناقَشَ الحسابَ.

---

(١) انظر: الوابل الصيب: (ص: ١١).

وَقَدْ دلَّ عَلَى وُجُوبِ محاسَبَةِ النَّفْسِ قولُه تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨]، يقول تَعَالَى: لِيَنْظُرْ أَحدُكُم مَا قدَّمَ ليومِ القيامةِ مِن الأعمالِ: أَمِنَ الصَّالحاتِ الَّتِي تُنْجِيهِ، أَمْ مِن السَّيِّئاتِ الَّتِي تُوبِقُهُ.

وفي محاسبةِ النَّفْسِ عِدَّةُ مصالحَ:

مِنْهَا: الاطِّلاعُ عَلَى عُيوبِها، ومَن لَمْ يطَّلعْ عَلَى عَيْبِ نفسِهِ، لَمْ يُمْكِنْهُ إزالَتُه، فَإِذَا اطَّلَعَ عَلَى عَيْبِها؛ مَقَتَها فِي ذاتِ اللهِ تَعَالَى.

وقالَ أَبو حفصٍ: «مَنْ لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ عَلَى دَوامِ الأوقاتِ، ولم يُخالِفْها فِي جميعِ الأحوالِ، ولم يَجُرَّها إِلَى مكروهِها فِي سائِرِ أَوقاتِه؛ كَانَ مغرورًا، ومَن نَظَرَ إِلَيْهَا باستحسانِ شيءٍ مِنْهَا؛ فَقَدْ أَهْلَكَها».

فالنَّفْسُ داعيةٌ إِلَى المَهالِكِ، مُعينَةٌ للأعداءِ، طامِحَةٌ إِلَى كلِّ قبيحٍ، مُتَّبِعَةٌ لكُلِّ سوءٍ، فَهِيَ تَجْرِي بطَبْعِها فِي ميدانِ المُخالَفَةِ.

فالنِّعْمَةُ الَّتِي لَا خَطَرَ لَهَا: الخروجُ مِنْهَا، والتَّخَلُّصُ مِن رِقِّها، فإِنَّها أَعظمُ حجابٍ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالى، وأَعرَفُ النَّاسِ بِهَا أَشدُّهُم إِزراءً عَلَيهَا، ومَقْتًا لَهَا.

ومَقْتُ النَّفسِ فِي ذاتِ اللهِ مِن صفاتِ الصِّدِّيقينَ، ويدنو العبدُ بِهِ مِن اللهِ تَعَالَى فِي لحظةٍ واحدةٍ أَضعافَ أَضعافِ مَا يَدنو بالعملِ.

ومِن فوائِدِ محاسبةِ النَّفْسِ: أَنَّهُ يعرِفُ بذلك حقَّ اللهِ تعالى، ومَن لَمْ يَعْرِفْ حقَّ اللهِ تَعَالَى عَلَيهِ؛ فإِنَّ عبادَتَهُ لَا تكادُ تُجْدِي عليهِ، وهي قليلةُ المنفعَةِ جدًّا.

فمِنْ أَنْفَعِ مَا للقلبِ النَّظَرُ فِي حقِّ اللهِ عَلَى العبادِ؛ فإِنَّ ذَلِكَ يورِثُهُ مَقْتَ نفسِه، والإزراءَ عَلَيْهَا، ويُخلِّصُه مِن العُجْبِ ورُؤيَةِ العملِ، ويفتَحُ لَهُ بابَ الخضوعِ والذُّلِّ والانكسارِ بينَ يدي ربِّهِ، واليأْسِ مِن نفسِهِ، وأَنَّ النَّجاةَ لَا تحصُلُ لَهُ إِلَّا بعفوِ اللهِ، ومغفرَتِهِ ورحمتِه، فإِنَّ مِن حقِّهِ أَنْ يُطاعَ وَلَا يُعْصَى،

وأَنْ يُذْكَرَ فلا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ.

فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذَا الحقِّ الَّذِي لربِّهِ عَلِمَ علمَ اليقينِ أَنَّهُ غيرُ مؤدٍّ لَهُ كَمَا ينبغي، وأَنَّهُ لَا يسعهُ إِلَّا العفوُ والمغفرةُ، وأَنَّهُ إِنْ أُحيلَ عَلَى عملِهِ هَلَكَ.

فهذا محلُّ نظرِ أهلِ المعرفةِ باللهِ تَعَالَى وبنفوسِهم، وهذا الَّذِي أَيْأَسَهُم مِن أَنْفُسِهم، وعلَّق رجاءَهُم كلَّهُ بعفوِ اللهِ ورحمتِه.

وإِذا تأَمَّلْتَ حالَ أَكثرِ النَّاسِ؛ وَجَدْتَهُم بضدِّ ذَلِكَ، ينظُرونَ فِي حقِّهِم عَلَى اللهِ، وَلَا ينظُرونَ فِي حَقِّ اللهِ عليهِم، ومِن هاهنا انْقَطَعوا عن اللهِ، وحُجِبَتْ قلوبُهُم عن معرفتِه ومحبَّتِه والشَّوقِ إِلَى لقائِهِ والتَّنَعُّمِ بِذِكْرِهِ، وهذا غايةُ جهلِ الإنسانِ بربِّهِ وبنفسِهِ» ا. هـ[1].

الخصلة الخامسة: أنهم يحسنون الظن بالله:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان: (ص: ٨٣ - ٨٨)، كتاب ذم النفس والهوى: (ص: ٣٣ - ٣٥).

إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩].

وعن محمد بن يحيى بن أبي حاتم قال: سألت عبد الله بن داود عن التوكل فقال: أرى التوكل حسن الظن ا. هـ(١).

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، وروح الله رحمته وفرجه وتنفيسه.

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ، فَإِنَّ قَوْمًا قَدْ أَرْدَاهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ [فصلت: ٢٣]»(٢).

وكان ﷺ يحب التفاؤل ويكره التطير، والفرق بينهما:

- أن الفأل إنما هو من طريق حسن الظن بالله.

- والتطير إنما هو من طريق الاتكال على شيء سواه.

وعن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحن نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل» ا. هـ(٣).

---

(١) انظر كتاب: «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا: (ص: ٤٥).

(٢) رواه أحمد: (٢٢٠٨٧)، ورواه مسلم: (٧٤٢١)، وغيره، دون قوله: «فإن قوما قد أرداهم...» إلخ.

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط: (٣/ ٢٨٩)، وتفسير أبي السعود: (٢/ ٢٣٥).

واعلم أن: «الشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى، ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصَّافات: ٨٦ - ٨٧]، وإن كان المعنى ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به وقد عبدتم معه غيره وجعلتم له ندًّا، فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره.

فإن المشرك إما أن يظن أن الله سُبْحَانَهُ يحتاج إلى من يدبر أمر العالم: من وزير أو ظهير أو عون، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

وإما أن يظن أن الله سُبْحَانَهُ إنما تتم قدرته بقدرة الشريك، وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم، أو لا يكفي عبده وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به وتكثره به من القلة وتعززه به من الذلة، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه كما هو حال ملوك الدنيا.

وهذا أصل شرك الخلق، أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم حتى يرفع الوسائط ذلك، أو يظن أن للمخلوق عليه حقًّا فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفته. وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلَّا نقص محبة الله تعالى وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك بسبب قسمته ذلك بينه سُبْحَانَهُ وبين من أشرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه لكفى في شفاعته.

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سُبْحَانَهُ، والتنقص لازم له ضرورة شاء

المشرك أم أبى» ا. هـ[١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، والهدى هو طريق النجاة والخلاص، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصرة.

فكلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه: فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة، فإنه سُبْحَانَهُ لا يخيب أمل آمل ولا يضيع عمل عامل.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤]:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة قال: قال ابن عباس: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾، «أي بخيلة»[٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ردّ الله عَزَّوَجَلَّ عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم» ا. هـ[٣].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْفَيْضُ أَوْ الْقَبْضُ

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان: (ص: ٦٢).
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (٥/ ٢٤).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٩٤).

يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»(١).

وعن أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلْيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ، إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا مُكْرِهُ لَهُ»(٢).

وقال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

عَنْ يحيى بن يعمر، أنه كَانَ يقرأ: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم: ٢]، بنقل، يَقُولُ: لما دَخَلَ عليها زكريا المحراب وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فقال: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾» ا. هـ(٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ عز وجل: مَنْ عَلِمَ أَنِي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي مَا لَمْ يُشْرِكْ بِي شَيْئًا»(٤).

قال بعض العارفين: «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته التي اعتقلته عن الخيرات، وأن يخرجه من وجود غفلته التي شملته في جميع الحالات؛ فقد استعجز القدرة الإلهية، ومن استعجزها فقد كفر أو كاد، ودليل ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥]» ا. هـ(٥).

---

(١) رواه البخاري: (٦٩٨٣)، ومسلم: (٩٩٣).
(٢) رواه البخاري: (٨٢٢٠)، ومسلم: (٢٦٧٩).
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٤٧).
(٤) رواه الطبراني: (١١٦١٥)، والحاكم: (٧٦٧٦)، وقال: «صحيح الإسناد» ا. هـ، وعبد بن حميد: (٦٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.
(٥) انظر: شرح الحكم العطائية: (١/ ١٣٤).

وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

وعن أنس رضي الله عنه: أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ، ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(١).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، ثنا عمرو بن رافع، ثنا سليمان -يعني: ابن عامر- عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠١]: «والاعتصام هو: الثقة بالله» ا. هـ(٢).

الخصلة السادسة: أنهم يداومون على التوبة والاستغفار:

قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ

---

(١) رواه البخاري: (٣٤٥٣)، ومسلم: (٢٣٨١).

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (٣/ ١١٠)، وسنده حسن.

تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر: ١ - ٣].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قال: «ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١]، إلَّا يقول فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله: «فالتوبة هي نهاية كل سالك وكل ولي لله، وهي الغاية التي يجري إليها العارفون بالله وعبوديته وما ينبغي له، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾، فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة» ا. هـ[(٢)].

والسر في كون التوبة نهاية كل سالك وغاية كل عابد هو ما جرى في الأزل لأبينا آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

وآخر، وهو أن العبد مهما بلغ في الصلاح بل حتى في النبوة والرسالة فذلك من فضل الله عليه، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) رواه البخاري: (٤٦٨٣)، ومسلم: (٤٨٤).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (١/ ١٣٤).

وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف:٣٨]، وقال سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٤٠].

ولهذا كان الاستغفار قرين التوحيد، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد: ١٩].

وجعلت التوبة والاستغفار أعظم الأسباب العشرة الموجبة لرفع العقوبة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قَدْ دَلَّتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: عَلَى أَنَّ عُقُوبَةَ الذُّنُوبِ تَزُولُ عَنْ الْعَبْدِ بِنَحْوِ عَشَرَةِ أَسْبَابٍ:

أَحَدُهَا: التَّوْبَةُ.

السَّبَبُ الثَّانِي: الِاسْتِغْفَارُ.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: الْحَسَنَاتُ الْمَاحِيَةُ.

السَّبَبُ الرَّابِعُ: دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِ.

السَّبَبُ الْخَامِسُ: مَا يُعْمَلُ لِلْمَيِّتِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ.

السَّبَبُ السَّادِسُ: شَفَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرُهُ فِي أَهْلِ الذُّنُوبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

السَّبَبُ السَّابِعُ: الْمَصَائِبُ الَّتِي يُكَفِّرُ اللهُ بِهَا الْخَطَايَا فِي الدُّنْيَا.

السَّبَبُ الثَّامِنُ: مَا يَحْصُلُ فِي الْقَبْرِ مِنْ الْفِتْنَةِ وَالضَّغْطَةِ وَالرَّوْعَةِ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يُكَفِّرُ بِهِ الْخَطَايَا.

السَّبَبُ التَّاسِعُ: أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَرْبُهَا وَشَدَائِدُهَا.

السَّبَبُ الْعَاشِرُ: رَحْمَةُ اللهِ وَعَفْوُهُ وَمَغْفِرَتُهُ بِلَا سَبَبٍ مِنْ الْعِبَادِ.

فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ قَدْ يُدْفَعُ عَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ

الْعَشَرَةِ، كَانَ دَعْوَاهُمْ أَنَّ عُقُوبَاتِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ لَا تَنْدَفِعُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مُخَالِفٌ لِذَلِكَ» ا. هـ[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالعبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى استغفار، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائمًا، فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه، ولا يزال محتاجًا إلى التوبة والاستغفار. ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين يستغفر في جميع الأحوال، وقال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»، وقال عبد الله بن عمر: «كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم»، مائة مرة»، وقال: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم اثنتين وسبعين مرة»، وفي صحيح مسلم أنه قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

ولهذا شرع الاستغفار في خواتيم الأعمال.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، قال: «بعضهم أحيوا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر أمروا بالاستغفار»، وفي الصحيح: «أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا، وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، إلى قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وقد أمر الله نبيه بعد أن بلغ الرسالة وجاهد في الله حق جهاده وأتى بما أمر الله به مما لم يصل إليه غيره، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ

(١) انظر: الإيمان الأوسط: (ص: ٣٣ - ٥٠) باختصار.

إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ - ٣]، ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار.

كما قال الله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ١ - ٣] الآية» ا. هـ[١].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنت رجلًا ذرب اللسان على أهلي، فقلت: يا رسول الله! إني قد خشيت أن يدخلني لساني النار، قال: «فأين أنت من الاستغفار، إني لأستغفر الله في اليوم وأتوب إليه مائة مرة»[٢].

«ذرب اللسان»: أي حدته وشره وفحشه.

وعن الربيع بن خثيم أنه قال لأصحابه: «تدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب ثم لا تعود» ا. هـ[٣].

وللتوبة شروط:

فإن كانت متعلقة بأمر هو لله فقط فشروطها ثلاثة، هي:

١- الإقلاع عن الذنب.

٢- والعزم على عدم العودة فيه.

٣- والندم على فعله.

---

(١) انظر: الفتاوى: (١٠/ ٨٨ - ٨٩).

(٢) رواه النسائي في الكبرى: (١٠٢٨٥)، وأحمد: (٢٣٤٩)، وابن حبان في صحيحه: (٩٢٦)، والحاكم في مستدركه: (١٨٨٢)، والبيهقي في الشعب: (٦٤٤)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢٧٦).

(٣) انظر: حلية الأولياء: (٢/ ١٠٨).

أما إذا كانت متعلقة بحق آدمي فلها شرط رابع، هو:

٤- أن يتحلل من صاحبها.

ولا تتم التوبة إذا فُقد أي شرط من شروطها.

وأفضل أنواع الاستغفار:

- أنْ يبدأ العبدُ بالثَّناء على ربِّه.

- ثم يثني بالاعتراف بذنبه.

- ثم يسأل الله المغفرة.

قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وأَنا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، وَأَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي، فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس مجلسًا فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلَّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلَّا كفر الله له ما كان في مجلسه ذلك»(٢).

وهكذا تفعل الملائكة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧].

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِيقِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

---

(١) رواه البخاري: (٦٣٢٣)، والنسائي (٥٥٢٢) واللفظ له.

(٢) رواه الترمذي: (٣٤٣٣)، وابن حبان في صحيحه: (٥٩٤)، وصححه الشيخ الألباني.

«عَلِّمْنِي دُعاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «قُلِ: اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[1].

الخصلة السابعة: أنهم يتدبرون القرآن ويتفكرون في آلاء الله وخلقه:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]:

دلت الآيات: على أن أعلى مراتب الصديقين التفكر في دلائل الذات والصفات، فإذا علم أنه لا سبيل له البتة إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله في خلق السموات والأرض، وإذا عرف بهذا البرهان النير قصور عقله وفهمه عن الإحاطة بهذا المقام، لم يبق معه إلَّا الاعتراف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين، بل يسلم ان كل ما خلقه ففيه حكم بالغة وأسرار عظيمة، وإن كان لا سبيل له إلى معرفتها. فعند هذا يقول: سبحانك، والمراد منه اشتغاله بالتسبيح والتهليل والتحميد والتعظيم، ثم عند ذلك يشتغل بالدعاء فيقول: فقنا عذاب النار، وقال تعالى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ

---

(١) رواه البخاري: (٦٩٥٣)، ومسلم: (٢٧٠٥).

وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم: ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»(٢).

ووجه تفضيل التفكر على العبادة أمران:

أحدهما: أن التفكر يوصلك إلى الله تعالى، والعبادة الخالية منه توصلك إلى ثواب الله تعالى.

والذي يوصلك إلى الله خير مما يوصلك إلى ثوابه.

والثاني: أن التفكر عمل القلب وهو أصل التوحيد، والطاعة عمل الجوارح، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح.

قال ابن القيم رحمه الله: «وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة، **فما كان لله فهو أنواع:**

الأول: الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها وفهمها وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالى، لا لمجرد تلاوتها بل التلاوة وسيلة، قال بعض السلف: «أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملًا».

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته وإحسانه وبره وجوده، وقد حث الله سبحانه عباده على التفكر في آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة في الآية، وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة مغفرته ورحمته وحلمه.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب: (١١٨)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢٠٩).
(٢) رواه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة: (١/ ٢٩٨).

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه، ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه، فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها. فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدًا، قال الشافعي رضي الله عنه: «صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين: أحدهما: قولهم الوقت سيف فإن لم تقطعه قطعك، وذكر الكلمة الأخرى: ونفسك إن أشغلتها بالحق وإلا أشغلتك بالباطل».

فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حيا الأبدية في النعيم المقيم ومادة المعيشة الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من مر السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته وإن عاش فيه عيش البهائم.

فإذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والأماني الباطلة وكان خير ما قطعه بالنوم والبطالة فموت هذا خيرًا له من حياته، وإذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له من صلاته إلَّا ما عقل منها فليس له من عمره إلَّا ما كان فيه بالله وله.

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر فإما وساوس شيطانية وإما أماني باطلة وخدع كاذبة بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين». ا. هـ[1].

قال ابن العربي رحمه الله تعالى: «أَمْرُ اللهِ تَعَالَى بِالنَّظَرِ فِي آيَاتِهِ، وَالِاعْتِبَارِ

(١) انظر: الجواب الكافي: (ص: ١٠٨ - ١٠٩).

بِمَخْلُوقَاتِهِ فِي أَعْدَادٍ كَثِيرَةٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ، أَرَادَ بِذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْيَقِينِ، وَقَوْلًا فِي الْإِيمَانِ، وَتَثْبِيتًا لِلْقُلُوبِ عَلَى التَّوْحِيدِ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ؛ قَالَ: قِيلَ لِأُمِّ الدَّرْدَاءِ: مَا كَانَ أَكْثَرُ شَأْنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ شَأْنِهِ التَّفَكُّرَ.

قِيلَ لَهُ: أَفَتَرَى الْفِكْرَ عَمَلًا مِنْ الْأَعْمَالِ؟ قَالَ: نَعَمْ. هُوَ الْيَقِينُ» ا. هـ[١].

فالتفكر طريق العبد إلى اليقين:

قال بعض السلف: «ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم، حتى أيقنت قلوبهم بربهم» ا. هـ[٢].

فالتفكر طريق إلى التذكر، وبينهما ارتباط وثيق:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتذكر والتفكر منزلان يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم، قال الحسن البصري: «ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة». ا. هـ[٣].

وتذكر المرء واتعاظه بالآيات إنما يبدأ من التفكر:

ولذلك قال بعض السلف: «إن للموعظة غطاء، وكشف غطائها التفكر» ا. هـ[٤].

والتفكر يذهب الغفلة عن المرء ويجلب الحياة لقلبه:

قال بعض السلف: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء

---

(١) انظر: أحكام القرآن: (٤/ ٢١).
(٢) انظر: الحلية: (٦/ ٣٠٣).
(٣) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٤٤١).
(٤) انظر: حلية الأولياء: (٨/ ٢٠٨).

البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين» ا. هـ[١].

وقال ابن عون رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة». ا. هـ[٢].

كما أن التفكر نور يدخله المرء إلى قلبه:

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفكرة نور تدخله إلى قلبك، كما أنه يظهر على المرء في هيئته وسكونه ووقاره» ا. هـ.

وقال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمن إذا تفكر علته السكينة» ا. هـ[٣].

وأعظم ما يتفكر به المرء وينتفع به كتاب الله تَعَالَى، قراءة وتدبرًا وتفكرًا، ففيه حياة القلوب والأبدان:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر ومر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم» ا. هـ[٤].

---

(١) انظر: حلية الأولياء: (١٠/ ٣٢٧).
(٢) انظر: معالم التنزيل للبغوي: (٤/ ١٥٢).
(٣) انظر: حلية الأولياء: (٤/ ٦٨).
(٤) انظر: مفتاح دار السعادة: (١/ ١٨٧).

إن قراءة القرآن بالتفكر أصل صلاح القلب، وكانت عادة السلف أن يقوم أحدهم بالآية يرددها حتى الصباح، «وقام النبي ﷺ بآية يرددها إلى أن أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»[(١)].

وعن عون بن عبد الله قال: بينما رجل بمصر في فتنة ابن الزبير ينكت في الأرض، إذ قام عليه رجل فقال له: بأي شيء تحدث نفسك أبالدنيا؟

قال: بل أتفكر في الذي نزل بالناس، فأنا بها مهتم، قال: فإن الله قد نجاك منها بفكرتك فيها، من الذي سأل الله فلم يعطه أو اتكل عليه فلم يكفه؟!!» ا. هـ[(٢)].

وكان محمد بن كعب القرظي يقول: «لأن أقرأ في ليلة حتى أصبح: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، و: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١]، لا أزيد عليها، ولا أتردد فيها، وأتفكر، أحب إلي من أهدر القرآن هدرًا، أو أنثره نثرًا» ا. هـ[(٣)].

وردد الحسن ليلة: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، حتى أصبح، فقيل له في ذلك، فقال: أن فيها معتبرًا ما نرفع طرفًا ولا نرده إلَّا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر».

وعن نسير قال: «بت عند الربيع بن خثيم ذات ليلة، فقام يصلي فمر بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فمكث ليلة حتى أصبح، ما يجاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاء شديد».

---

(١) رواه ابن ماجه: (١٣٥٠)، والنسائي: (١٠٨٤)، وأحمد: (٢١٣٦٦)، والحاكم في مستدركه: (٨٧٩) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب: (٧٧٥)، وحسنه الألباني.

(٢) انظر: الفتن لنعيم بن حماد: (١/ ١٨٩).

(٣) انظر: حلية الأولياء: (٣/ ٢١٤).

قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «ما زلت على عادة الخلق في الحزن على من يموت من الأهل والأولاد، ولا أتخايل إلَّا بلى الأبدان في القبور، فأحزن لذلك، فمرت بي أحاديث قد كانت تمر بي ولا أتفكر فيها.

منها قول النبي ﷺ: «إنما نفس المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرده الله عز وجل على جسده يوم يبعثون».

فرأيت أن الرحيل إلى الراحة، وأن هذا البدن ليس بشيء، لأنه مركب تفكك وفسد، وسيبنى جديدًا يوم البعث، فلا ينبغي أن يتفكر في بلاء.

و لتسكن النفس إلى أن الأرواح انتقلت إلى راحة فلا يبقى كبير حزن، وأن اللقاء للأحباب عن قرب.

و إنما يبقى الأسف لتلعق الخلق بالصور، فلا يرى الإنسان إلَّا جسدًا مستحسنًا قد نقض فيحزن لنقضه. والجسد ليس هو الآدمي، وإنما هو مركبه، فالأرواح لا ينالها البلى. والأبدان ليست بشيء.

واعتبر هذا بما إذا قلعت ضرسك ورميته في حفرة، فهل عندك خبر مما يلقى في مدة حياتك؟ فحكم الأبدان حكم ذلك الضرس، لا تدري النفس ما يلقى، ولا ينبغي أن تغتم بتمزيق جسد المحبوب وبلاه.

واذكر تنعم الأرواح، وقرب التجديد، وعاجل اللقاء، فإن الفكر في تحقيق هذا يهون الحزن، ويسهل الأمر». ا. هـ[1].

الخصلة الثامنة: أنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم[2]:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

---

(١) انظر: صيد الخاطر: (ص: ٢٠٧).

(٢) وقد جمعت جملة من الأذكار بشيء من التوسع في كتابي: «الذكر والدعاء»، وهو مطبوع بفضل الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ [النور: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الزمر: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧].

وقال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥].

وقال تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٩].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره:

أن ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم: «سبق المفردون»، قالوا: يا رسول الله! ومن المفردون؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»، وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب الورق ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟»، قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «ذكر الله».

والدلائل القرآنية والإيمانية بصرًا وخبرًا ونظرًا على ذلك كثيرة، وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين ﷺ:

كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيدة: مثل ما يقال عند الأكل والشرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل والمسجد والخلاء

والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد، إلى غير ذلك». ا. هـ[١].

الذكر هو مادة التوحيد:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥]، ثم قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، إلى أن قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وعن حميضة بنت ياسر عن جدتها يسيرة رضي الله عنها وكانت إحدى المهاجرات قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُنَّ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ، وَلا تَغْفُلْنَ فَتَنْسَيْنَ التَّوحِيدَ، وَاعْقِدْنَ بِالْأَنَامِلِ، فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولَاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ»[٢].

وقال جابر رضي الله عنه: فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ: «لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ»[٣].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٦٠).

(٢) رواه أبو داود: (١٥٠١)، والترمذي: (٣٥٨٣)، وأحمد: (٢٧١٣٤)، والطبراني في الكبير: (٢٠٦٩٢)، وابن حبان في صحيحه: (٨٤٢)، والحاكم في مستدركه: (٢٠٠٧) واللفظ له، وأبو نعيم في حلية الأولياء: (٢/ ٦٨)، قال الشيخ الألباني: «وهو حديث حسن، أخرجه أبو داود وغيره، وصححه الحاكم والذهبي، وحسنه النووي والعسقلاني» ا. هـ. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة: (١/ ١٨٦).

(٣) رواه مسلم: (٣٠٢٨).

لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ»(١).

وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ»(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»(٣).

والذكر يجزئ عن غيره من النوافل وغيره لا يغني عنه:

عن عبد الله بن بسر: أن أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ: إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأنبئني منها بشيء أتشبث به، قال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله عز وجل»(٤).

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنْ الْأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، قَالَ: «أَلَا أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ، تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ»، فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا، فَقَالَ بَعْضُنَا: نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ

---

(١) رواه البخاري: (٦٤٠٣)، ومسلم: (٢٦٩١).

(٢) رواه مسلم: (٢٦٩٢).

(٣) رواه مسلم: (٢٦٩٢).

(٤) رواه الترمذي: (٣٣٧٥)، وابن ماجه: (٣٧٩٣)، وأحمد: (١٧٧٣٤)، وابن حبان في صحيحه: (٨١٤)، والحاكم: (١٨٢٢)، وصححه الألباني.

تَقُولُ: «سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ»(١).

عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: أَيُّ الْجِهَادِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ﷻ ذِكْرًا»، قَالَ: فَأَيُّ الصَّائِمِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ﷻ ذِكْرًا»، ثُمَّ ذَكَرَ لَنَا الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْحَجَّ وَالصَّدَقَةَ، كُلُّ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ﷻ ذِكْرًا»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه لِعُمَرَ رضي الله عنه: يَا أَبَا حَفْصٍ ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَجَلْ»(٢).

ويصدقه قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال ابن القيم رحمه الله: «وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه يقول: الصحيح أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر: فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر» ا. هـ(٣).

قلت: لأن الذكر غاية، ونهيها عن الفحشاء وسيلة. وفي السنن عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى» ا. هـ(٤).

---

(١) رواه البخاري: (٨٠٧)، واللفظ له، ومسلم: (٢٨٦٨).

(٢) رواه أحمد: (١٥٦٥٢).

(٣) انظر: الوابل الصيب: (ص: ١٠٢).

(٤) رواه أبو داود: (١٨٨٨)، والترمذي: (٩٠٢)، وأحمد: (٢٤٣٩٦)، وابن خزيمة في صحيحه: (٢٧٣٨)، والحاكم: (١٦٨٥)، وقال أبو عيسى: «وهذا حديث حسن صحيح».

كمال الحياة بكمال الذكر:

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»(١).

ويصدقه من القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا هَذَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، ثُمَّ دَعَا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ فَشَقَّهُ بِاثْنَيْنِ فَغَرَسَ عَلَى هَذَا وَاحِدًا وَعَلَى هَذَا وَاحِدًا، ثُمَّ قَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»(٢).

فجعل التخفيف مقيدًا برطوبتهما فقط.

وقال بعض الحكماء: «الحكمة في ذلك أنهما ما دامتا رطبتين تسبحان الله تعالى، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]» ا. هـ(٣).

قال القرطبي رحمه الله: «وقال يزيد الرقاشي أنه قال للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان: أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يسبح مرة.

يريد أن التسبيح من الحي أو النامي، سواء الحيوان أو النبات، وما عداه» ا. هـ(٤).

---

(١) رواه البخاري: (٦٤٠٧)، واللفظ له، ومسلم: (٧٧٩).
(٢) رواه البخاري: (١٣٦١)، ومسلم: (٢٩٢).
(٣) انظر: بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي الحنفي: (٢/ ٣١٣).
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: (١٠/ ٢٦٦).

الخصلة التاسعة: أنهم يتلون كتاب الله ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[(١)].

عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: «تلاوة القرآن»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم: (٢٦٩٩).

(٢) رواه البيهقي في الشعب: (٢٠١٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء: (٨/ ١٩٧)، والقضاعي في مسند الشهاب: (١١٧٨)، بإسناد حسن.

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة»(١).

وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ»، قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ»(٣).

ويلتزمون في فهم القرآن بالسنة الصحيحة وبما ثبت من الآثار عن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون لهم بإحسان:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قال أحمد: يحذر المتكلم في الفقه هذين الأصلين: المجمل والقياس. وقال: أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس، يريد بذلك: ألا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق قبل النظر فيما يخصه ويقيده، ولا يعمل بالقياس قبل النظر في دلالة النصوص هل تدفعه، فإن أكثر خطأ الناس تمسكهم بما يظنونه من دلالة اللفظ والقياس، فالأمور الظنية لا يعمل بها حتى يبحث عن المعارض بحثًا يطمئن القلب إليه، وإلا أخطأ من لم يفعل ذلك. وهذا هو الواقع في المتمسكين بالظواهر والأقيسة؛ ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الإعراض عن تفسير النبي ﷺ وأصحابه طريق أهل البدع، وله في ذلك مصنف كبير، وكذلك التمسك بالأقيسة مع الإعراض

---

(١) انظر: الدر المنثور: (٥/ ٦٠٧).

(٢) رواه مسلم: (٧٨٠).

(٣) رواه مسلم: (٨٠٢).

عن النصوص والآثار طريق أهل البدع، ولهذا كان كل قول ابتدعه هؤلاء قولًا فاسدًا، وإنما الصواب من أقوالهم ما وافقوا فيه السلف من الصحابة والتابعين» ا. هـ[١].

وعن عبد الله بن مسعود قال: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا عليمًا سكيتًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلًا ولا صخابًا ولا صياحًا ولا حديدًا»[٢].

ومصداقه في كتاب الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر: ٨٧ - ٨٨].

الخصلة العاشرة: أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر:

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

---

(١) انظر: الإيمان: (ص: ١٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة: (٨/ ٣٠٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء: (١/ ١٣٠) واللفظ له.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾، قال: «هو التكذيب»، قال: «وهو أنكر المنكر». ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾، قال: «شهادة أن لا إله إلَّا الله، والإقرار بما أنزل الله، وهو أعظم المعروف»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر]: قال الشافعي رضي الله عنه: «لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم».

وبيان ذلك: أن المراتب أربعة، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله:

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به، فهذه مرتبة.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق، فهذه مرتبة أخرى.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، وصى به بعضهم بعضًا تعليمُ وإرشادًا، فهذه مرتبة ثالثة.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه

---

(١) انظر: الدر المنثور: (٤/ ٢٣٢).

والثبات، فهذه مرتبة رابعة وهذا نهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملًا في نفسه مكملًا لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية. فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل.

فهذه السورة على اختصارها، هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره» ا. هـ[1].

الخصلة الحادية عشرة: أنهم يحفظون ألسنتهم من منكر القول والزور:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١]:

وفي الآية إشارة إلى أمور ثلاثة: مرتبة بعضها دون بعض، وهي: **السخرية واللمز والنبز.**

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة: (١/ ٥٦).

فالسخرية هي: أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال ولا يلتفت إليه، ويسقطه عن درجته.

وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعايب، وهذا كما قال بعض الناس: «تراهم إذا ذكر عندهم عدوهم يقولون: هو، دون أن يذكر وأقل من أن يلتفت إليه، فقال: لا تحقروا إخوانكم ولا تستصغروهم.

الثاني هو **اللمز**، وهو: ذكر ما في الرجل من العيب في غيبته، وهذا دون الأول، لأن في الأول لم يلتفت إليه ولم يرض بأن يذكره أحد، وإنما جعله مثل المسخرة الذي لا يغضب له ولا عليه.

الثالث هو **النبز**، وهو دون الثاني: لأن في هذه المرتبة يضيف إليه وصفًا ثابتًا فيه يوجب بغضه وحط منزلته، وأما النبز فهو مجرد التسمية وإن لم يكن فيه، وذلك لأن اللقب الحسن والاسم المستحسن إذا وضع لواحد وعلق عليه لا يكون معناه موجودًا، فإن من يسمى سعدًا وسعيدًا قد لا يكون كذلك، وكذا من لقب إمام الدين، وحسام الدين لا يفهم منه أنه كذلك، وإنما هو علامة وزينة، وكذلك النبز.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»(١).

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: «لقد سألت عن عظيم، وانه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، ثم قال: «ألا

---

(١) رواه أحمد: (١٣٠٧١)، والطبراني في المعجم الكبير: (١٠٥٥٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والقضاعي في مسند الشهاب: (٨٨٧)، والحاكم وصححه: (١٢٩٩)، وحسنه الشيخ الألباني.

أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦] حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٩]، ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟»، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟»، فقلت له: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه فقال: «كف عليك هذا»، فقلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس على وجوههم في النار - أو قال - على مناخرهم إلَّا حصائد ألسنتهم». ا. هـ[١].

وعَنْ جُنْدَبٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» أَوْ كَمَا قَالَ[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ»[٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[٤].

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله! حدثني بأمر أعتصم به؟ قال: «قل: ربي الله ثم استقم»، قلت: يا رسول الله! ما أكثر ما تخاف علي؟

---

(١) رواه الترمذي: (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في الكبرى: (١١٣٣٠)، وأحمد: (٢٢٠٦٩)، والحاكم (٣٥٤٨)، والطبراني (٢٩٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٢٢٥)، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) رواه مسلم: (٢٦٢١).

(٣) رواه البخاري: (٦٤٧٧)، ومسلم: (٢٩٨٨).

(٤) رواه البخاري: (٦١٣٦)، ومسلم: (٤٧).

فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه ثم قال: «هذا»[١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأما اللفظات: فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة، بل لا يتكلم إلَّا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة: نظر هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فان لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوته بها كلمة هي أربح منها فلا يضيعها بهذه، وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان فإنه يطلعك على ما في القلب» ا. هـ[٢].

أقفال القلوب، وحاصلها أربعة:

١- حب الدنيا.

٢- وحب الرئاسة.

٣- والانهماك في الحظوظ والشهوات.

٤- وكثرة العلائق والشواغل.

فإن سَلِمَ من هذه صفا قلبُه.

كرامات الأولياء:

- **الْكَرَامَاتُ**: جَمْعُ كَرَامَةٍ.

«وَهِيَ فِي اللُّغَةِ: الشَّرَفُ، مِنَ الْكَرَمِ: الَّذِي يعني: شَرَفَ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي خُلُقٍ مِنَ الأَأَخْلَاقِ.

---

(١) رواه الترمذي: (٣١١٦)، وابن ماجه: (٣٩٧٢)، واللفظ له، وأحمد: (١٥٤٥٧)، وابن حبان في صحيحه: (٥٦٩٨)، وهو في مسلم دون السؤال الثاني.

(٢) انظر: الجواب الكافي: (ص: ١١٠).

أَوِ الإِكْرَامُ: الَّذِي هُوَ إِيصَال نَفْعٍ إِلَى الإِنْسَانِ، لَا يَلْحَقُهُ فِيهِ غَضَاضَةٌ، أَوْ أَنْ يَجْعَل مَا يُوَصل إِلَيْهِ شَيْئًا كَرِيمًا، أَيْ شَرِيفًا»[(١)].

أَمَّا فِي الاِصْطِلَاحِ الشَّرْعِيِّ، فَقَدْ عَرَّفَ ابْنُ عَابِدِينَ الْكَرَامَةَ بِأَنَّهَا: «ظُهُورُ أَمْرٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، عَلَى يَدِ عَبْدٍ ظَاهِرِ الصَّلَاحِ، مُلْتَزِمٍ لِمُتَابَعَةِ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، مُقْتَرِنًا بِصَحِيحِ الاِعْتِقَادِ وَالْعَمَل الصَّالِحِ، غَيْرِ مُقَارِنٍ لِدَعْوَى النُّبُوَّةِ» ا. هـ[(٢)].

فَامْتَازَتِ الْكَرَامَةُ بِعَدَمِ الاِقْتِرَانِ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ عَنِ الْمُعْجِزَةِ، وَبِكَوْنِهَا عَلَى يَدِ ظَاهِرِ الصَّلَاحِ وَهُوَ الْوَلِيُّ عَمَّا يُسَمُّونَهُ مَعُونَةً وَهِيَ الْخَارِقُ الظَّاهِرُ عَلَى أَيْدِي عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ، تَخَلُّصًا لَهُمْ مِنَ الْمِحَنِ وَالْمَكَارِهِ، وَبِمُقَارَنَةِ صَحِيحِ الاِعْتِقَادِ وَالْعَمَل الصَّالِحِ عَنِ الاِسْتِدْرَاجِ، وَبِمُتَابَعَةِ نَبِيٍّ قَبْلَهُ عَنْ خَوَارِقِ مُدَّعِي النُّبُوَّةِ الْمُؤَكِّدَةِ لِكَذِبِهِ الْمَعْرُوفَةِ بِالإِهَانَةِ كَبَصْقِ مُسَيْلِمَةَ فِي بِئْرٍ عَذْبَةِ الْمَاءِ لِيَزْدَادَ مَاؤُهَا حَلَاوَةً، فَصَارَ مِلْحًا أُجَاجًا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكَرَامَاتُ الأَوْلِيَاءِ حَقٌّ بِاتِّفَاقِ أَهْل الإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَقَدْ دَل عَلَيْهَا الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَالأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ وَالآثَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ.

وَإِنَّمَا أَنْكَرَهَا أَهْل الْبِدَعِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ تَابَعَهُمْ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَدَّعِيهَا أَوْ تُدَّعَى لَهُ يَكُونُ كَذَّابًا أَوْ مَلْبُوسًا عَلَيْهِ» ا. هـ[(٣)].

الفرق بين الكرامة والمعجزة:

- **الْمُعْجِزَةُ**: اسْمُ فَاعِلٍ، مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْعَجْزِ الْمُقَابِل لِلْمَقْدِرَةِ، لِمَا فِيهَا مِنْ إِعْجَازِ الْخَصْمِ عِنْدَ التَّحَدِّي، وَالْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ

وَهِيَ فِي الشَّرْعِ: مَا خَرَقَ الْعَادَةَ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، إِذَا وَافَقَ دَعْوَى الرِّسَالَةِ

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة: (٥/ ١٧٢)، ومفردات الراغب: (ص: ٧٠٧).

(٢) انظر: مجموعة رسائل ابن عابدين: (٢/ ٢٧٨).

(٣) انظر: مختصر الفتاوى المصرية: (ص: ٦٠٠).

وَقَارَنَهَا وَطَابَقَهَا، عَلَى جِهَةِ التَّحَدِّي ابْتِدَاءً، بِحَيْثُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَيْهَا وَلَا عَلَى مِثْلِهَا وَلَا عَلَى مَا يُقَارِبُهَا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَسْمِيَةُ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَأَعْلَامِهَا «مُعْجِزَاتٍ» إِنَّمَا هُوَ اصْطِلَاحُ النُّظَّارِ، إِذْ لَمْ يَرِدْ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَالَّذِي فِيهِ لَفْظُ الآيَةِ وَالْبَيِّنَةِ وَالْبُرْهَانِ» ا. هـ[1].

وجوه التفريق بين الكرامة والمعجزة هي:

أَوَّلا: أَنَّ الْمُعْجِزَةَ تَقْتَرِنُ بِالتَّحَدِّي، وَهُوَ طَلَبُ الْمُعَارَضَةِ وَالْمُقَابَلَةِ، يُقَال: تَحَدَّيْتُ فُلَانًا: إِذَا بَارَيْتَهُ فِي فِعْلٍ وَنَازَعْتَهُ لِلْغَلَبَةِ، أَمَّا الْكَرَامَةُ فَلَا تَقْتَرِنُ بِذَلِكَ.

ثَانِيًا: أَنَّ الأَنْبِيَاءَ مَأْمُورُونَ بِإِظْهَارِ مُعْجِزَاتِهِمْ، لِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَى مَعْرِفَةِ صِدْقِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ، وَلَا يُعْرَفُ النَّبِيُّ إِلَّا بِمُعْجِزٍ. أَمَّا الْكَرَامَةُ فَلَا يَجِبُ عَلَى الْوَلِيِّ إِظْهَارُهَا، بَل يَسْتُرُ كَرَامَتَهُ وَيُسِرُّهَا وَيَجْتَهِدُ عَلَى إِخْفَاءِ أَمْرِهِ.

ثَالِثًا: أَنَّ دَلَالَةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ قَطْعِيَّةٌ، وَأَنَّ النَّبِيَّ يَعْلَمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، بَيْنَمَا دَلَالَةُ الْكَرَامَةِ عَلَى الْوِلَايَةِ ظَنِّيَّةٌ، وَلَا يَعْلَمُ مُظْهِرُهَا أَوْ مَنْ ظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ أَنَّهُ وَلِيٌّ، وَلَا غَيْرُهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، لِاحْتِمَال أَنْ يَكُونَ مَمْكُورًا بِهِ.

رابعًا: أَنَّ الْكَرَامَةَ لَا يَجُوزُ بُلُوغُهَا مَبْلَغَ الْمُعْجِزَةِ فِي جِنْسِهَا وَعِظَمِهَا، كَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَانْفِلَاقِ الْبَحْرِ وَقَلْبِ الْعَصَا حَيَّةً وَخُرُوجِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ الأَصَابِعِ.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد: ٣٨].

الفرق بين الكرامات وخوارق أولياء الشيطان:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ خَوَارِقَ الْعَادَاتِ لَا تَدُل عَلَى عِصْمَةِ صَاحِبِهَا، وَلَا عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ فِي كُل مَا يَقُول، لِأَنَّ بَعْضًا مِنْهَا قَدْ يَصْدُرُ عَنِ

(١) انظر: الجواب الصحيح: (٤/ ٦٧).

الْكُفَّارِ وَالسَّحَرَةِ بِمُؤَاخَاتِهِمْ لِلشَّيَاطِينِ، كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ رَسُول اللهِ ﷺ عَنِ الدَّجَّال: «أَنَّهُ يَقُول لِلسَّمَاءِ: أَمْطِرِي فَتُمْطِرُ، وَلِلأَرْضِ: أَنْبِتِي فَتُنْبِتُ، وَأَنَّهُ يَقْتُل وَاحِدًا ثُمَّ يُحْيِيهِ، وَأَنَّهُ يَخْرُجُ خَلْفَهُ كُنُوزُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ».

وَلِهَذَا اتَّفَقَ أَئِمَّةُ الدِّينِ عَلَى أَنَّ الرَّجُل لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ، لَمْ تَثْبُتْ لَهُ وِلَايَةٌ، بَل وَلَا إِسْلَامٌ حَتَّى يُنْظَرَ وُقُوفُهُ عِنْدَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ» ا. هـ[1].

المفاهيم الباطلة حول الولاية:

١- اعتقاد أن الولي يتصرف في الكون، ويجوز دعاؤه والاستغاثة به في الشدائد من دون الله تعالى.

٢- اعتقاد عصمة الولي، وأن الله لا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان، كما يقول القشيري عفا الله عنه.

٣- اعتقاد أن الولي يعلم الغيب، وأنه يغني عن نفسه وعن الخلق.

٤- أو أن الولي يتطور ويظهر في أشكال مختلفة، فتارة تراه أسدًا، وتارة تراه شيخًا، وتارة تراه صبيًا. وأنه يوجد في أماكن مختلفة في وقت واحد.

٥- اعتقاد أن الولي يباح له مخالفة الشريعة، وأنه يجب التسليم له وعدم الإنكار عليه ولو ترك الجمع والجماعات، لأنه صاحب حال - كما يقول بعض الجهال.

٦- اعتقاد أن الولاية تكون بيد الولي الكبير يعطيها لمن يشاء من أتباعه، وهذا ضلال لا يحتاج إلى إقامة الدليل على بطلانه.

---

(١) انظر: مختصر الفتاوى المصرية: (ص: ٦٠٠)، ومجموع الفتاوى: (٢/ ٤٨٨)، (٦/ ١٠٨)، والفتاوى الكبرى (١/ ٢٠٦).

٧- اعتقاد أن للولاية خاتمًا كما أن للنبوة خاتمًا، وهذا من الضلال المبين.

٨- اعتقاد أن الولي يمكنه سلب العلم والهداية من مخالفيه، وهذا داخل تحت اعتقادهم أنه يتصرف في الكون.

فهذه الاعتقادات الباطلة مما يعلم يقينًا أنها مخالفة للكتاب والسنة ولما عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وأنها سبيل أولياء الشيطان لا أولياء الرحمن.

الأصل السادس

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«رد الشبه التي وضعها الشيطان في ترك الكتاب والسنة، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وهي أن القرآن والسنة لا يفهمها إلا الموصوف بكذا وكذا، ...». ا. هـ.

الشرح

قوله: (رد الشبه التي وضعها الشيطان... إلخ)

قد حكى الله عن الكفار أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، وتواصوا بالإعراض عنه، وحكى عنهم قولهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت:٥]، وذم الله من لا يتدبر القرآن فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، فأمرهم بالتدبر في القرآن، ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه، وبين أن تلاوته من غير فهم للعقيدة والعمل به هي طريقة عوام اليهود، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. وروى الترمذي وغيره عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا، فقال: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟». قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت قلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قاله أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس؟ الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى

فيه رجلًا خاشعًا. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأهل الْعِبَادَاتِ الْبِدْعِيَّةِ يُزَيِّنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ، وَيُبَغِّضُ إلَيْهِمْ السُّبُلَ الشَّرْعِيَّةَ حَتَّى يُبَغِّضَهُمْ فِي الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، فَلَا يُحِبُّونَ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَلَا ذِكْرَهُ، وَقَدْ يُبَغِّضُ إلَيْهِمْ حَتَّى الْكِتَابَ، فَلَا يُحِبُّونَ كِتَابًا وَلَا مَنْ مَعَهُ كِتَابٌ، وَلَوْ كَانَ مُصْحَفًا أَوْ حَدِيثًا؛ كَمَا حَكَى النصرباذي أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: يَدَعُ عِلْمَ الْخِرَقِ وَيَأْخُذُ عِلْمَ الْوَرَقِ، قَالَ: وَكُنْت أَسْتُرُ أَلْوَاحِي مِنْهُمْ فَلَمَّا كَبِرْتُ احْتَاجُوا إلَى عِلْمِي.

وَكَذَلِكَ حَكَى السَّرِيُّ السقطي: أَنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ دَخَلَ عَلَيْهِ فَلَمَّا رَأَى عِنْدَهُ مِحْبَرَةً وَقَلَمًا خَرَجَ، وَلَمْ يَقْعُدْ عِنْدَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التستري: يَا مَعْشَرَ الصُّوفِيَّة[1]، لاَ تُفَارِقُوا السَّوَادَ عَلَى الْبَيَاضِ[2]، فَمَا فَارَقَ أَحَدٌ السَّوَادَ عَلَى الْبَيَاضِ إلَّا تَزَنْدَقَ.

وَقَالَ الْجُنَيْد: عِلْمُنَا هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ الْقُرْآنَ وَيَكْتُبْ الْحَدِيثَ لَا يُقْتَدَى بِهِ فِي هَذَا الشَّأْنِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَنْفِرُ مِمَّنْ يَذْكُرُ الشَّرْعَ أَوْ الْقُرْآنَ أَوْ يَكُونُ مَعَهُ كِتَابٌ أَوْ يَكْتُبُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اسْتَشْعَرُوا أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ فِيهِ مَا يُخَالِفُ طَرِيقَهُمْ فَصَارَتْ شَيَاطِينُهُمْ تُهَرِّبُهُمْ مِنْ هَذَا، كَمَا يُهَرِّبُ الْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ ابْنَهُ[3] أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى لَا يَتَغَيَّرَ اعْتِقَادُهُ فِي دِينِهِ، وَكَمَا كَانَ قَوْمُ نُوحٍ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَيَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ لِئَلَّا يَسْمَعُوا كَلَامَهُ وَلَا يَرَوْهُ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ الْمُشْرِكِينَ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ

---

(١) المراد بالصوفية هنا، الصوفية المعتدلة التي كانت في القرون الأولى، أما الصوفية اليوم فكلهم ضالون منحرفون.

(٢) المراد (بالسواد والبياض) كتابة العلم.

(٣) قلت: (والرافضة) أيضًا يدخلون في هذا، فالواقع اليوم أن الرافضي يهرب ابنه، كما يهرب اليهودي والنصراني ابنه من أن يسمع كلام المسلمين.

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١]، وَهُمْ مِنْ أَرْغَبِ النَّاسِ فِي السَّمَاعِ الْبِدْعِيِّ سَمَاعِ الْمَعَازِفِ، وَمِنْ أَزْهَدِهِمْ فِي السَّمَاعِ الشَّرْعِيِّ سَمَاعِ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى. وَكَانَ مِمَّا زَيَّنَ لَهُمْ طَرِيقَهُمْ أَنْ وَجَدُوا كَثِيرًا مِنْ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ وَالْكُتُبِ مُعْرِضِينَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ، إمَّا اشْتِغَالًا بِالدُّنْيَا، وَإِمَّا بِالْمَعَاصِي، وَإِمَّا جَهْلًا وَتَكْذِيبًا بِمَا يَحْصُلُ لِأَهْلِ التَّأَلُّهِ وَالْعِبَادَةِ، فَصَارَ وُجُودُ هَؤُلَاءِ مِمَّا يُنَفِّرُهُمْ وَصَارَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ نَوْعُ تَبَاغُضٍ يُشْبِهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ مَا بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَّتَيْنِ: هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَيْسَ هَؤُلَاءِ عَلَى شَيْءٍ، وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَيْسَ هَؤُلَاءِ عَلَى شَيْءٍ، وَقَدْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَحْصُلُ لَهُمْ بِطَرِيقِهِمْ أَعْظَمُ مِمَّا يَحْصُلُ فِي الْكُتُبِ» ا. هـ[1].

اعلم رحمك الله: أن من أكثر أسباب ضلال من ضل من الخلق هو التقليد الأعمى، وقد ذم الله التقليد الأعمى في آيات كثيرة:

كقوله ﷻ: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٤]، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الصافات: ٦٩ - ٧٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قَسَّمَ الشَّاطِبِي رَحِمَهُ اللهُ الناس بالنسبة لأحكام الشريعة إلى **ثلاثةِ أقسام**:

القسم الأول: أن يكون مجتهدًا فيها، فحكمهُ ما أداه اجتهادهُ فيها.

القسم الثاني: أن يكون مقلدًا صرفًا خليًّا من العلم جملةً، فلا بد له من قائد يقوده.

القسم الثالث: أن يكون غير بالغ مبلغ المجتهدين، لكنَّهُ يفهم الدليل

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٤١١).

وموقعهُ، ويصلح فهمهُ للترجيح بالمرجحات المعتبرة في تحقيق المناط[١].

فالشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ اعتبر القسم الأخير مترددًا بين **القسمين الأولين**:

- فإن أُعْتُبِرَ ترجيحهُ فحكمه حكم المجتهد.

- وإن لم يعتبر ترجيحهُ فحكمهُ حكم العامي.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فما من إمام إلَّا والذي معهُ بعض العلم لا كُلُّه، فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك: أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]» ا. هـ[٢].

ولكن لا بد من التنبه للشرط الذي اشترطهُ الأئمة، وهو أن يكون لك إمام في هذه المسألة.

التقليد المُحرم:

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «إعلام الموقعين» ثلاثة أقسام للتقليد المُحرم:

«**الأول**: الإعراض عما أنزل الله وعدم الرجوع إليه اكتفاء بتقليد الآباء.

الثاني: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله.

الثالث: التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد.

والفرق بين هذا وبين النوع الأول:

- أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة.

---

(١) انظر: «الاعتصام»: (٢/ ٣٤٢ - ٣٤٢).

(٢) انظر: فتح المجيد (ص: ٣٧٤).

- وهذا قلد بعد ظهور الحجة له، فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله.

وقد ذم الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التقليد، في غير موضع من كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزُّخرف: ٢٣ - ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤].

وهذا في القرآن كثير يذم فيه من أعرض عما أنزله وقنع بتقليد الآباء.

فإن قيل: إنما ذم من قلد الكفار وآباءه الذين لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون، ولم يذم من قلد العلماء المهتدين، بل قد أمر بسؤال أهل الذكر وهم أهل العلم وذلك تقليد لهم، فقال تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]، وهذا أمر لمن لا يعلم بتقليد من يعلم؟

فالجواب: أنه سبحانه ذم من أعرض عما أنزله إلى تقليد الآباء، وهذا القدر من التقليد هو مما اتفق السلف والأئمة الأربعة على ذمه وتحريمه. وأما تقليد من بذل جهده في اتباع ما أنزل الله وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه فهذا محمود غير مذموم ومأجور غير مأزور»[(١)].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى: «أما استدلال بعض الظاهرية كابن حزم ومن تبعه بهذه الآية التي نحن بصددها وأمثالها من الآيات، على منع الاجتهاد في الشرع مطلقًا، وتضليل القائل به، ومنع التقليد من أصله، فهو مِنْ وضع القرآن في غير موضعه، وتفسيره بغير معناه، كما هو

---

(١) انظر: إعلام الموقعين: (٢/ ٢٠٩ - ٢١٠).

كثير في الظاهرية.

لأن مشروعية سؤال الجاهل للعالم وعمله بفتياه أمر معلوم من الدِّين بالضرورة، ومعلوم أنه كان العامي يسأل بعض أصحاب النَّبي ﷺ فيفتيه فيعمل بفتياه، ولم ينكر ذلك أحد من المسلمين، كما أنه من المعلوم أن المسألة إن لم يوجد فيها نص من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ[1]، فاجتهاد العالم حينئذ بقدر طاقته في تفهم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ليعرف حكم المسكوت عنه من المنطوق به، لا وجه لمنعه، وكان جاريًا بين أصحاب رسول الله ﷺ، ولم ينكره أحد من المسلمين». ا. هـ[2].

تم الشرح بفضل الله تعالى وعونه
والحمد لله رب العالمين

(١) أو قول أحد الصحابة رضي الله عنهم.
(٢) انظر: أضواء البيان: (٣/ ١٤٦ - ١٤٧).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

تقديم الشيخ صالح بن فوزان الفوزان ٥

مقدمة ٧

إتحاف أهل السنة المحضة في بيان، وشرح الأصول الستة ٩

الأصل الأول: ١٤
طلب الدعاء من الغير حيًّا كان أو ميتًا: ٤٢
التوسل بالجاه والحرمة: ٤٨

الأصل الثاني: ٤٧
من هم أهل السنة؟ ٥٦
خصائص أهل السنة والجماعة: ٥٧
الخصيصة الأولى: هم صفوة الله من خلقه وخير البشر: ٥٧

الموضوع	الصفحة

الخصيصة الثانية: هم الذين حفظ الله بهم الدين: ٥٩

الخصيصة الثالثة: أنهم هم أهل الكتاب والأثر علمًا وعملًا: ٦٢

الخصيصة الرابعة: أنهم يشهدون على الخلق يوم القيامة: ٦٦

الخصيصة الخامسة: أنهم يدعون الخلق إلى التوحيد وينهونهم عن الشرك: ٦٧

الخصيصة السادسة: أنهم يردون ما تناقلوا فيه إلى الكتاب والسنة: ٧٠

الخصيصة السابعة: أنهم يفهمون الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح ولا يخرجون عن فهمهم: ٧٢

الخصيصة الثامنة: إن معيار ولاءهم للخلق وميزانهم في ذلك هو التوحيد والسنة: ٧٤

الخصيصة التاسعة: يعاملون مخالفيهم بالعدل والإنصاف: ٨١

بيان حال المخالفين: ٨١

التفريق بين مراتب المخالفين: ٨٥

فرق بين مخالفة العالم في الأمور الجلية والأمور الخفية: ٨٧

الخصيصة العاشرة: أنهم وسط بين الفرق كما أن المسلمين وسط بين الملل الأخرى: ٨٨

الخصيصة الحادية عشرة: أنهم متفقون على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلَّا رسول الله ﷺ: ٩٥

الموضوع **الصفحة**

الخصيصة الثانية عشرة: يعتقدون أن التكفير والتفسيق حق لله تعالى، فلا يكفرون ولا يفسقون إلَّا من استحق ذلك الوصف، ليس لهم هوى في ذلك: ٩٦

الخصيصة الثالثة عشرة: متفقون أن التكفير المطلق لا يلزم منه تكفير المعين، وأن التفسيق المطلق لا يلزم منه تفسيق المعين: ٩٩

الخصيصة الرابعة عشرة: متفقون على وجوب التحذير من أهل البدع، والمظهرين للفجور: ١٠٢

الخصيصة الخامسة عشرة: هم القائمون بهجران أهل البدع والفجور مع مراعاة الضوابط الشرعية: ١٠٤

فصل في ضوابط الهجر ١٠٦

الخصيصة السادسة عشرة: يأخذون بمقاصد الشريعة ولا يغفلون عن مراعاة المصالح والمفاسد: ١٠٨

الأصل الثالث: ١١٦

أنواع الخارجين: ١٢٣

النوع الأول: الخوارج ١٢٣

النوع الثاني: البغاة: ١٣٣

النوع الثالث: قطاع الطريق واللصوص: وهم ثلاثة أصناف: ١٣٧

الأصل الرابع: ١٣٩

الموضوع **الصفحة**

البواعث المؤدية إلى التأويل: ١٥٠
نتائج التأويل: ١٥١
الجواب والرد على هذه الطوائف: ١٥٦
منهج أهل الحديث في النظر والاستدلال: ١٦٩
منهج الاستدلال عند أهل البدع: ١٧١
أهم الفروق بين السياسة الشرعية والسياسة البدعية الجاهلية: ١٧٦

الأصل الخامس: ١٧٧
أقسام أولياء الله ﷻ: ١٨٠
أفضل أولياء الله ﷻ: ١٨٢
خِصال أولياء الله تعالى: ١٨٣
الخصلة الأولى: التقوى: ١٨٣
الخصلة الثانية: أنهم لا يبتغون بأعمالهم إلَّا وجه الله ومرضاته: ١٨٤
الخصلة الثالثة: أنهم لا يرون الفضائل والخيرات التي عملوها من أنفسهم بل من فضل الله ورحمته: ١٨٨
الخصلة الرابعة: أنهم يشاهدون عيوب أنفسهم ويحاسبونها: ١٩٢
الخصلة الخامسة: أنهم يحسنون الظن بالله: ١٩٦
الخصلة السادسة: أنهم يداومون على التوبة والاستغفار: ٢٠١
الخصلة السابعة: أنهم يتدبرون القرآن ويتفكرون في آلاء الله وخلقه: ... ٢٠٧

الموضوع **الصفحة**

الخصلة الثامنة: أنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم: ٢١٤
الذكر هو مادة التوحيد: ٢١٨
والذكر يجزئ عن غيره من النوافل وغيره لا يغني عنه: ٢١٩
كمال الحياة بكمال الذكر: ٢٢١
الخصلة التاسعة: أنهم يتلون كتاب الله ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه: ٢٢٢
الخصلة العاشرة: أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر: ٢٢٤
الخصلة الحادية عشرة: أنهم يحفظون ألسنتهم من منكر القول والزور: ٢٢٦
كرامات الأولياء: ٢٢٩
الفرق بين الكرامة والمعجزة: ٢٣٠
الفرق بين الكرامات وخوارق أولياء الشيطان: ٢٣١
المفاهيم الباطلة حول الولاية: ٢٣٢

الأصل السادس: ٢٣٤
التقليد المُحرم: ٢٣٧

الفهرس ٢٤١

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com